



عبقريّة عمر

عباس محمود العقاد

مؤسس المشروع د. طلال مكي
رئيسة المشروع سهام الشريف
نائب رئيس المشروع دعاء بامردوف
نائب رئيس المشروع شهد ياسين

رئيس لجنة الدراسات : ابراهيم عبدالعزيز المعثم
نائبة رئيس لجنة الدراسات : تهاني احمد بنتن
مشرفة لجنة التلخيص الشهري : صباح فهد عجيبي
رئيسة لجنة الكتابة : وديان سعد اللقمانى
نائبة رئيسة لجنة الكتابة : شروق عارف الشريف
رئيسة لجنة تقنية المعلومات : امواج محمد نوح
رئيسة لجنة التصميم والتنسيق : مروج القرمانى
رئيسة لجنة التدقيق ومراجعة الروايات : اثير العمري
رئيس لجنة العلاقات العامة : محمد راجح القحطاني
نائبة رئيس لجنة العلاقات العامة : تسنيم الحكمي
نائبة رئيس لجنة العلاقات العامة : شياء العرفج

عنفرة
اسم الملخصة
وفاء سيفي

تدقيق املائي ونحوي

مقبولة العتيبي

تنسيق الكتاب واخراجہ

لبنى بابكر

جدول المحتويات

٥	المقدمة
٦	لماذا عمر؟!
٧	بين يدي سيرة عمر
٧	عن المخاض العمري
٧	أن تولد من جديد على صفحات القرآن
٨	ربيع عمر الآخر
٨	عمر يختار قلبه
٩	مفتاح عمر : الإيجابية ..
١٠	موسم الهجرة إلى الحضارة
١٠	الإخلاص في العمل ، الخلاص في العمل
١١	كل الحكاية في "نظام التشغيل"!
١٢	ما لم يقله "عمر" في الخمر!
١٣	بل هو الفتح يا عمر!
١٣	رغم الحزن، لا وقت للدموع.. ..
١٤	الشيخان: تكامل لا تطابق.. ..
١٧	الطريق إلى القادسية
١٨	الكلام لسعد، و لكن اسمعي يا جارة!
١٩	كسرى خارج التغطية.. ..
٢٠	ألف عام، أربعة أيام، وثلاث ليال!
٢٢	الفتح، من أبواب متفرقة
٢٣	غُلِبَت الروم!
٢٤	في حضرة المكان.. ..
٢٥	العهد العمرية، بنسختها الكاملة
٢٥	أبو العيال، وأم الدنيا!
٢٧	الوقائع الشخصية لأزمة عامة
٢٩	هل تعاقب نفسك يا عمر؟!
٣١	المرأة الأخرى ، في حياة عمر بن الخطاب ..
٣٧	الصلاة يا أمير المؤمنين !
٦٤	عمر ووعاء الحضارة
٦٥	مدرسة تجفيف المنابع
٦٨	حياة عمر : الدخول فيها ممكن لكن الخروج مستحيل ..
٧٢	استرداد عمر

المقدمة

في رمضان وليلة ٢٧ إذ بإحدى قمم الجبال تشرق أمام عيني أتعب الكثيرين من بعده سلام عليك أيها الفاروق الذي اتصل نسبه برسول الله صلى الله عليه وسلم من كعب بن لؤي الذي أطفأ نار المجوس وكسر حصون كسرى اشتدت الفتوحات ونشر الإسلام في عهده ويكفي فخراً دعاء الرسول له (يارب انصر الإسلام بأحد العمرين) لتجد الكثير من القوة وشدة الحق في سيرته

هو عمر بن الخطاب بن نوفل

٢٧/رمضان/ ١٤٣٩

الكاتبة

نور عفيف

الكتاب

استرداد عمر

لماذا عمر؟!

ليس لأسباب شخصية حتماً .. ولا حتى طائفية .. بل لأنني أرى أن عمراً هو مدخلنا إلى ما يجب أن نصل إليه .. بالضبط فهم عمر للقرآن ، وللسنة النبوية هو ما أقصده بمدخلنا. ربما في مراحل أخرى لاحقة يمكن لنا أن نلتزم بفهم مختلف للقرآن والسنة . لكن في مفترق الطرق الذي نمر فيه الآن في الوضع الذي تجتمع فيه الغيوم والعواصف حتى تكاد تنعدم الرؤية ويبدو كل منزلق كما لو كان خياراً بالنسبة للبعض . في هذه المرحلة : الفهم العمري للقرآن والسنة .. الفهم الحاسم .. فصل الخطاب هو ما أوّمن أننا نحتاجه . لم يجد المذهب العمري في فهم النصوص وتطبيقها من أجل البناء النهضوي والحضاري من يؤصله . لا أتحدث هنا عن تطبيقات فقهية محددة أخذ بها عمر.. بل عن طريقته في قراءة العالم من حوله عبر النصوص القرآنية وبالتالي مساهمته في بناء هذا العالم بحسب هذه النصوص . ولقد أن الأوان ...

ول ديورانت مفكر أمريكي كتب قصة الحضارة في أحد عشر مجلداً . أكثر من عشرة آلاف صفحة .. وأكثر من أربعة ملايين كلمة ، عمر اختصر كل ذلك بحياته هو . قدم قصة الحضارة بتنقلاتها ومراحلها المتعددة ، قدمها على نحو عملي .. فكانت حياته هي الطبعة العملية من قصة الحضارة بنسختها الإسلامية المشرقة . تمر الحضارة بمراحل عديدة قبل أن تنشأ .. يكون هناك أولاً طور البداوة ومن ثم تنشأ فيكون هناك طور التغلب والقوة ، وطور الازدهار ، ثم طور الترف ، وأخيراً طور التدهور والانحيار . عمر انتقل مع من انتقل من المسلمين من طور الجاهلية (البداوة) إلى طور القوة ، ودخل في طور الازدهار . كما كان عمر محذراً من الترف ، لأنه كان واعياً أنه مدخل لطور الانحيار. لابد أن يكون هناك حكمة في أن تكون الحضارة قد ارتفعت بناؤها على يدي عمر وليس على يدي الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ! لو أن هذه الحضارة ارتفعت على يديه عليه الصلاة والسلام وبوجوده الشخصي .. لكننا تصورنا جميعاً أنها أشبه بالمعجزة .. أنها ارتبطت به .. وبالتالي لا يمكن لنا أن نواصل بناءها أو إعادة بنائها أو استلهاها . لكنه عمر هذا الشخص الذي ارتفعت الحضارة على يديه فيه رسالة كبيرة لك شخصياً . يمكن لمعجزتك أن تحدث أيضاً مادام سببها موجوداً. القرآن الذي تفاعل عمر معه فتغير كل شيء فيه !

يمكن لمعجزتك أن تحدث أيضاً ، فتساهم في بناء الحضارة ، بل أن تسترجع طريقها الذي ضلّلنا عنه . لو أن الطريق كان قد قضي على يدي الرسول صلى الله عليه وسلم . لوجد الشيطان في ذلك تثبيطاً لك ، كان سيقول لك : إنه الرسول ! بالتأكيد كان سينجح في ذلك ! لكن أنت ! مالذي يمكنك أن تفعله ؟!

لكنه عمر ! شاءت حكمة الله أن تعرف أن بإمكانك الكثير لو أتحت للقرآن أن يفعل بك ما فعله بعمر ! عمر ككل الشخصيات العملاقة في التاريخ كان شخصاً مثيراً لمشاعر مختلفة وهذا طبيعي جداً . نحن نحبه وهم يكرهونه ، نحبه لأنه رمز العدل .. رمز المساواة .. رمز الدولة التي يشعر الجميع فيها بالأطمئنان وهم يكرهونه لأنه كان كل ذلك أيضاً . الأسباب نفسها التي تجعلنا نحبه تجعلهم يكرهونه .

بين يدي سيرة عمر

ليس هناك الكثير مما ثبت عن عمر قبل الإسلام لذا فلم أر من الضروري التوقف عند مناطق مجهولة والبناء على ما تراكم من مرويات لم تثبت وإن وجدت في كتب السير . كتبت عن عمر الذي ثبت بأكثر من مجرد السند الصحيح .. بالسند الصحيح وبالواقع المجرد ، عمر الذي غير العالم .

عن المخاض العمري

بعض الناس يكتفون بالولادة الأولى ، الولادة البيولوجية والبعض لا يكتفي أبداً بل يولد عدة مرات في حياته ويكون لولادته تلك أثر ولادة حضارة جديدة لعالم جديد أفضل .. عمر بن الخطاب كان من أولئك الذين لم يكتفوا بولادة واحدة ، ولاداته المتعددة تركت علامة فارقة بين الحضارات الإنسانية . حضارة قامت على مبادئ قرآنية تملك مقومات تجعلها تقوم من جديد (ليس تلقائياً ! .. ليس من دون عمل !) .

لقد صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : (اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك : بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب) . لقد شخص الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وأدرك أن في أبو جهل وعمر صفة يمكن أن تكون كنزاً عظيماً فيما لو كانت مع الإسلام . الشيء الذي أودى بالأول في قعر جهنم وأوصل الثاني إلى البشارة بالجنة ؟

هذه الصفة ، صفة الثبات على ما يؤمن به المرء وتكريسه كل وقته وجهده له والإيمان بالفكرة إلى الحد الأقصى دون هوادة .. دون تردد .. دون مساومة .. هي الصفة التي اشترك بها عمر مع عمرو بن هشام . كل حضارة لكي تنشأ لكي تقوم تحتاج أشخاصاً يحملون هذه الصفة ، دون أي مجال لهزيمة نفسية حضارية تجاه الحضارات الأخرى . يكون الأشخاص الذين يمتلكون هذه الصفة يقدررون جداً من يمتلكها مثلهم حتى لو كانوا ثابتين على أشياء مختلفة . كان عمر يرى ذلك في المسلمين الأوائل الذين كان يشارك في اضطهادهم ، وكان ذلك يستفز عمر بلا شك .. أية عقيدة التي تمد أصحابها بهذا الثبات ! وهو يعرف معنى الثبات . كان عمر يمر بصراع داخلي كان بمثابة المخاض الممهد للولادة .. كان مخاضاً مؤلماً بلا شك مثل كل المخاضات .

أن تولد من جديد على صفحات القرآن

في سورة طه قرأ عمر كل ما يحتاجه ليجهز على ترده .. ليقطع به شكوكه ويرحل إلى يقينه .. خاطبته السورة كما لو كانت تتحدث عنه شخصياً وعلى نحو حميم .. (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) (طه : ٢) . وكان الشقاء رفيقه الشخصي منذ أن فارقه طمأنينة ثباته . كان أتباع الدين الجديد يرون صنوفاً من الأذى مما يمكن بسهولة أن يُقال عنه "شقاء" لكن كتابهم يعيد تعريف الشقاء والسعادة بالنسبة لهم كأنه يقول لهم : إن الشقاء الحقيقي هو أن تكون بعيداً عن نفسك - عدواً لها- وأن السعادة هي أن تتسجم مع نفسك .. ومع ما أراد لها خالقها أن تكون . كل ولادة تحدث عبر القرآن يمكنها أن تحدث ذلك الأثر في مولودها .. كل آية في القرآن مؤهلة لتحدث ولادة لكل واحد منا .. بقي أن نكون مستعدين لتقبل التغيير .

ربيع عمر الآخر

عمر بن الخطاب الحياة بالنسبة له موقف .. قضية .. كما لو أنه كان يبحث عن هذه القضية طيلة حياته .. فقال دلوني على محمد! . لقد قرر أن تكون حياته تحقيقاً لدعاء الرسول صلى الله عليه وسلم..قرر أن تكرر حياته لعز الإسلام .. تخيلوا أنه عليه الصلاة والسلام أخذ بمجامع قميصه وجذبه إليه .. ليقول له : ((أسلم)) ! كم بين ذلك حرقته عليه الصلاة والسلام على إسلام عمر! كم بين ذلك استشعاره عليه الصلاة والسلام لا بحاجة عمر إلى الإسلام فحسب ، بل بحاجة الإسلام أيضاً إلى أشخاص يملكون صفات مثل التي يملكها عمر.. إسلامه كان عزاً للإسلام ! من منا يمكن أن يكون إسلامه عزاً للإسلام ؟

ونطق الشهادة ! أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .. في ذلك الربيع قام عمر بالجهر بكلمة الحق . أنت تقول عبر الشهادتين : إنك تشهد أن لا إله إلا الله ، ليس هناك من قوة يمكن أن تسيطر أو تهيمن على مقاليد عقلك وقلبك ورؤيتك إلا من خلقك .. وأنت تشهد أيضاً أن هذه الرؤية لن تكون إلا من خلال ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام .

هل يمكن أن يكون عمر أقوى من الرسول صلى الله عليه وسلم ؟!

العبرة هنا أنه كان على أحد غير الرسول صلى الله عليه وسلم أن يفعل ذلك ، لو أنه فعلها عليه الصلاة والسلام لما حصل الدرس للجميع .. درس أنهم قادرون على الفعل .. أن الإسلام يستخرج أفضل ما فيهم .. بل يستخرج منهم مالم يتخيلوا وجوده فيهم . وهكذا كان لابد للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أن لا يفعل كل شيء بنفسه .. لكي يتيح المجال لولادة العمالقة .. وكان عمر مثلاً حياً عملياً على ذلك .

عمر يختار قالبه

نولد ومعنا مقدرات معينة مواهب فطرية لم نبذل جهداً في الحصول عليها . كل هذه الصفات بمعزل عن كونها فطرية أو مكتسبة.. كثيراً ما نوضع نحن بما فينا من صفات في أحد القوالب الجاهزة من حولنا . وعندما تملك الوعي والإرادة فإنك تختار "القالب" الذي تكون فيه ما أراذك الله أن تكون .. القالب الذي تزدهر فيه صفاتك التي شاء الله أن تكون فيك .. ويكون فيه ما تحارب الصفات التي شاء عز وجل أن يختبرك بها .. لكل منا قالبه "الأنسب" الذي يمكننا من خلاله أن نكون ما أرادنا الله أن نكونه .. ووجه عمر بن الخطاب ما يمكن أن يتشكل طينه من خلاله .. لسنا متأكدين من شيء إلا أن تلك الآيات كانت مثل القالب الذي احتوى الطين العمري بكل مافيه من قدرات وصفات .. لم يخبرنا عمر بسند أو حديث عن تأثره بتلك الآيات تحديداً .. لكن كل سيرته ، كل ما في حياته ، ينقل لنا أنه قد "وشم" بتلك الآيات ، أنها قد "شكلته" .. قد وضعته في قالبها العملاق ، وجعلته بالتدريج .. يصبح عملاقاً ليكون على مقاسها .. عن آيات نتحدث .. عن آيات في سورة كان سبب نزولها مرتبطاً بإسلامه رضي الله عنه .. سورة "ص" ١٧-٢٦ " ها هو الطين العمري يصب في القالب الذي تقدمه سورة "ص" الآيات تتكلم عن سيدنا داود عليه السلام ، داود العابد لله وهو أيضاً ذو الأيدي .. عمر أيضاً كان ذا أيدي أيضاً قائمة منجزاته تبدو أحياناً كالخرافة ! وهذا يعني أنه في أقصى الممكن من الفاعلية .. في حالة نشاط دؤوب .. يد هنا ويد هناك .

ماذا عن تسخير الجبال والطير في الآيات ؟ التسخير يأتي لمن يفهم أسرار الاستخدام ويضعها في سياق مناسب للإفادة منها سواء كانت دابة .. أو ريحاً .. أو جبلاً .. الخ ، سنرى كيف كان عمر يخلق في أسرار الاستخدام .

الحكمة وفصل الخطاب : الحكمة عاملاً يشد الملك ويقويه وفصل الخطاب هو الثبات الذي لا يقبل المساومة .. الحكمة مع فصل الخطاب هي التوازن الذي يتمسك بالثوابت ولا يقبل حتى فكرة التفاوض عليها .. من الصعب أن نجد موقفاً واحداً لعمر لا تتجلى فيه هذه الصفة .

ثم تأتي حادثة الخصمين النجاح لتثير مسألة العدالة الاجتماعية تقول لعمر : إن هذه العدالة هي صلب هذا الدين .. وحدها هذه يمكن أن تستغرق مجلدات في سيرة عمر !

علم عمر أن هذا هو الحد الأقصى لما يمكن لإنسان أن يكون بعد مقام النبوة الذي لا تنافس فيه ، عندما نختار لحياتنا مسارها . فإننا نختار دون وعيٍ منا قلباً ذكر بطريقة أو بأخرى في القرآن الكريم .

البعض يختار قلب الخوض مع الخائضين ..

والبعض يختار قلب "أبي جهل" .. قلب "أسفل السافلين" .

البعض يكون مذبذباً ، لا إلى هؤلاء ولا إلى أولئك .. يختار قلب "المنافقين" ..

البعض يختار قلب "المخلفين" ..

البعض يختار قلب "الدواب" .. قلب "الأنعام" بل أضل سبيلاً ..

قلب "ياليتني كنت تراباً"

والبعض مثل عمر ، يختار قلب الذي خلقنا لأجله .. قلب "خليفة في الأرض" ..

مفتاح عمر : الإيجابية ..

القرآن يدعو إلى العمل .. إلى الإيجابية .. إن لم يكن هناك عمل به ، فلم أنزل أصلاً ؟ هكذا تفاعل عمر مع كل آية لابد أن يكون هناك عمل بها ، في كل آية ، ثمة مفتاح ما .. يقول لك .. استخدمني .. كان هذا هو مفتاح عمر الأهم في تعامله مع القرآن .. أن يفهمه على نحو "إيجابي" ، هذا المفتاح العمري في فهم القرآن سيشمل كل تفاعلاته مع القرآن التي كانت مستمرة حتماً كل يوم .

مثال

عن ابن جريج . بلغني أنّ عمر بن الخطاب قال في قصة بني إسرائيل : إن بني إسرائيل قد مضوا ، وإنكم أنتم تعنون بهذا الحديث ... هكذا فهم رضي الله عنه كل سياق قرآني ذكر بني إسرائيل .. نحن المقصودون . القرآن ليس كتاب تاريخ .. ليس كتاب حكايات .. على العكس .. إنه كتاب حاضر مستمر وأيضاً هو كتاب لصناعة المستقبل ..

عمر هنا لا يستعمل مفتاحه الإيجابي فقط ، بل هو يضع حصانة ضد الفهم السلبي المحتمل الكامن الذي يستميل الناس في فتورهم فيعمدون إلى الأخذ به ويتصورون في الوقت ذاته أنهم لا يخالفون أمر الله .. لكن درة عمر وفهمه الإيجابي ، يقفان بالمرصاد لأي فهم سلبي حتى قبل أن يحدث !

موسم الهجرة إلى الحضارة

بعد سنوات ليست كثيرة جداً بحساب التاريخ ، سبعة عشر عاماً فقط كان العالم قد تغير كثيراً .. ومثلما أعلن عمر على الملأ في مكة أن مرحلة الاستضعاف قد انتهت .. وأن مرحلة التمكين قد بدأت بالبزوغ فإنه قرر أن يجعل ذلك رسمياً بعد سبعة عشر عاماً من وقوع الحدث .. عمر بن الخطاب ، كان أول من استخدم التقويم الهجري .. كتقويم رسمي للدولة الإسلامية ، للحضارة التي كانت تمر في نشوئها المضيء ..

كان بإمكانه أن يختار فتح مكة مثلاً .. أو مولد الرسول صلى الله عليه وسلم .. أو البعثة .. لكن ليس عمر ، عمر يختار الهجرة التي كانت فاصلاً بين الفكرة والتطبيق بين النظرية والممارسة العملية .. الهجرة كانت هي المحك لكل ما سبق .. كانت هي الامتحان .. كانت مرحلة النزول إلى الواقع لتغييره مباشرة .. وإن كانت هناك حضارة أخرى لا يعجبها ، فلتحاول أن تلاقي حضارة الإسلام .. بمنجزاتها .. وراء هذا الوادي .. لأن قيمها أقوى .. لأنها أنسب للإنسان .. بغض النظر عن لونه وعرقه ومكان وجوده .. يومها ، العالم كله سيستخدم التقوى الذي اختاره عمر .. ومن يظن أن ذلك مستحيل .. فعمر ينتظره وراء ذلك الوادي .

الإخلاص في العمل ، الخلاص في العمل

الحديث الذي نعرفه جميعاً هو : إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لأدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه . والصحابي الوحيد الذي روى الحديث هو .. عمر ! مالذي دفع عمر للسؤال ؟ لابد أنه رأى شيئاً ما من السلوكيات التي دفعته للسؤال والاستفسار .. في مكة كان التصنيف شديد الوضوح . مؤمنون ، كفار .. لكن في المدينة ظهرت فئة جديدة تعمل عمل المؤمنين وتضمير الشر لهم .. المنافقون .. وكان عمر يريد معرفة المزيد عن الدوافع البشرية في العمل .. الفهم قوة دوماً ، وعمر لن يترك فرصة للفهم تفلت منه .. لقد أدرك جيداً أن الإسلام قد دخل مرحلة التطبيق العملي .. وأن أعمال الناس قد تختلط في دوافعها وأن من يريد أن يستثمر العمل في الإنجاز فعليه أن يفرق بين دوافع العمل والعمل نفسه ونتائجه .. لنأخذ الهجرة مثلاً ، ماذا لو أن دوافع المهاجر لم تكن خالصة لله ؟ ماذا لو كانت هذه الهجرة لنيل منصب أو للتقرب لامرأة ؟ يحدث هذا ، لكن هذا لن يستوجب أي حكم اتجأه مادام عمله صواباً دافعه أو نيته ليست من شأنا .. الله خالق الخلق ، والعليم بما في الصدور .. هو من سيحاسبه ، ولن يحدث ذلك إلا لاحقاً .. يوم نحاسب جميعاً. لكن ماذا عن من "يعمل" عمل المؤمنين .. وهو يضمير الشر لهم .. هؤلاء شغلوا ذهن عمر كثيراً .. شخص "واضح" مثل عمر هؤلاء يشكلون بالنسبة له مصدر قلق حتمي .. وكان عمر يريد أن يعرف .. كي يأمن الركب من شرهم .

النيات التي تغيب في الصدور ، تظهر لها امتدادات على السطح .. وإن كان لا يستطيع أن يجزم بنفاق فلان فإنه يستطيع أن يكون فكرة مجملة عن شخص ما قد يكون منافقاً ، وذلك بأفعال متكررة تفضح علانية ما يخفيه الرجل في سره ..

وهكذا فإن مشكلة عمر مع المنافقين كانت من ثلاثة جوانب ..

الجانب الأول : في كونهم خطراً كامناً يشبه الخلايا النائمة .

الجانب الثاني : شخصي ، يتعلق في عدم استيعابه لقدرتهم على التلون وهو رجل واضح .

الجانِب الثالث : عندما صار عمر قريباً من مصادر القرار ثم صار هو مصدر القرار الرئيسي كيف يتأكد أنه لا يختار إحدى الخلايا النائمة .. ليجعلها عاملاً على مال أو حَسبة أو ولاية ؟!

لماذا عمر كان مشغولاً بكل ذلك ؟ بالعمل وبالصدق فيه أو بعدم الصدق فيه ؟ لأنه كان يؤمن بالعمل ! كان يؤمن بأن الإخلاص في العمل سيبقى أمراً فردياً لا يمكن تحديده .. لكن "الخلاص" هو في العمل .. الانهماك في العمل.. المهم أن يكون صواباً .. المشروع الحضاري عندما يبدأ في الارتفاع على القائمين عليه الانتباه لدوافع من يعمل على رفعه .. لكن عليهم الانتباه أيضاً لكن عليهم الانتباه أيضاً إلى أن صوابية العمل ستكون بالتدريج أهم من الدوافع .. وأن تكون هناك رقابة دائمة .. طاغية مهيمنة على كل المناصب العليا .. وهي الرقابة التي ستترك أثرها الإيجابي حتى على الوظائف الأدنى .

انقطع الوحي .. لن نعرف منكم غير ما يظهر منكم ولن يظهر منكم غير عملكم وعلى هذا سيكون الحساب .. الحضارة "شدت" .. والركب سار .. والنفاق لن يبقى في القلب ، بل سيظهر سلوكاً عملياً متراكماً لا يمكن أن يخطئه مراقب حتى لو لم يقل إنَّ هذا منافق بالتحديد .. وهكذا تعامل عمر مع عماله وولاته في مشروعه الحضاري ..

كل الحكاية في "نظام التشغيل" !

عندما تقوم بتنزيل نظام تشغيل جديد فإن كل ما سيدخل الحاسوب من ملفات و وثائق سيتم التعامل معه عن طريق النظام الجديد و لن تحتاج إلى تنصيبه في كل مرة تضيف فيها ملفاً.
عقل عمر بن الخطاب تعامل مع القرآن كنظام للتشغيل أعاد برمجة عقل و مسح كل شيء سابق للقرآن و قام بتنصيب القرآن نظاماً واحداً للتشغيل لا يعارضه و لا يشوشه شيء، ربما هذا هو ما يجب أن يحدث مع الجميع، و ربما لم يكن عمر وحده من قام بذلك من الجيل الأول و لكن العقل العمري كان أول من حصل على شهادة الخبرة!

كيف؟

عندما حصل ما يعرف بموافقات عمر بن الخطاب للقرآن، و هي ما أشار به عمر على الرسول صلى الله عليه و سلم بطلب أو بدون طلب، و قد يكون رأي عمر مخالفاً لما يراه البقية ..
ثم يأتي خبر من السماء، بآيات قرآنية يوافق فيها رأي عمر، الذي ربما كان يبدو بعيداً عن الأخذ لحظة قاله، و عمر لم يمتلك صفة خارقة و لكن عمر قام بتشغيل نظام التشغيل القرآني.
الموافقات العمرية للقرآن متعددة، البعض منها حددها عمر بين ثلاث و عشرين موافقة، و هي تظهر لنا العقل البشري عندما يلتزم بنظام تشغيل محدد يمكن أن يبدع لأقصى حد.
يخاف كثيرون من ترك العنان للعقل و تقديم العقل على النقل، و لكن عندما هذا العقل يُشغل بنظام تشغيل قرآني فإن المخاوف لا معنى لها.

مقام إبراهيم!

عن إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عمر بن الخطاب أنه مر بمقام إبراهيم فقال: يا رسول الله أليس نقوم مقام خليل ربنا؟ قال: "بلى"، قال: أفلا نتخذة مصلى؟ فلم يلبث إلا يسيراً حتى نزلت: "وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى".

قد يبدو الحدث بسيطاً، لكن يضم في ثناياه عمقاً كبيراً، فالفهم العمري كان لا يكتفي بالمعرفة النظرية بل يبحث عن الرموز الشعائرية التي تكرر ذلك الامتداد التاريخي، و كلنا نعرف أن دعوة الرسول صلى الله عليه و سلم هي امتداد لدعوة إبراهيم.

الآية التي سبقت كل ذلك كانت تقول:

وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ (سورة البقرة ١٢٤)
(ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)

وقعت هذه الكلمات في ذهن العمري موقع من يرى في رحلة إبراهيم بين حضارات عصره ورفضه لها باحثاً عن حضارة بديلة التي بذر بذرتها في وادٍ غير ذي زرع، و كان عمر يعي أن الدرب الذي بدأه إبراهيم منذ أن انطلق يحطم الأوثان ذلك الدرب قد وصل الآن و مع بعثته صلى الله عليه وسلم إلى مرحلة البدء الفعلي بتكوين الحضارة.

و هذه الموافقة تمنحنا لمحة عن الفهم الحضاري لنظام التشغيل القرآني الذي فعله عمر.

و لعل هذه الموافقات و من سواها، هي التي جعلته عليه الصلاة و السلام يقول عن عمر:

" إِنَّهُ كَانَ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدِّثُونَ فَإِنْ يَكُنْ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ فَهُوَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ "

القصة في النهاية قصة " نظام تشغيل "، و ليس سهلاً قط أن تبدل نظام تشغيلك الذي تعودت عليه، لكن أحياناً لا بد مما ليس منه بد.

ما لم يقله " عمر " في الخمر!

كان عمر في الجاهلية فيما يرويه عن نفسه من محتسي الخمر، لم يكن في ذلك ما يعيب عمر أو يشينه، فقد كان سائداً عند العرب، ثم أسلم عمر و لم يكف عن شرب الخمر، لكن شيئاً فشيء تشكلت الآيات في عقله بدأ يجد تناقض بين الخمر و مع ما فهمه من الإسلام.

فمنذ أن اعتنق عمر الإسلام و هو يعي أنه يتطلب أن يكون في حالة انضباط، و مسؤولية عن كل ما يفعله، و كان الخمر يتناقض مع ذلك حتى و لو لم تكن حُرمت بعد.

و كان القرآن قد نزل لقوم "يعقلون" لأشخاص عقولهم تعمل باستمرار و تتكون بالقرآن، لكن الخمر كانت تعطل العقل كله، و بدا كل ذلك لعمر متناقضاً بعضه لبعض.

كان في صراع مع العادة، مع معصية لم تكن قد أصبحت معصية بعد، و إن كان قد فهم بعقله الذي يعمل بنظام قرآني أنها مخالفة لكل ما فهمه من القرآن.

و في هذا الصراع عرف عمر أن الوسيلة الوحيدة- بالنسبة له- للتغلب على نفسه و يضرب من خلالها عنق هذه العادة أن يكون هناك نص صريح يمكنه من ذبح هذا العدو.

قال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً.. فنزلت الآية: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا) وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (البقرة: ٢١٩)

فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ) النساء: ٤٢.

فكان منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقام الصلاة نادى: لا تقربوا الصلاة و أنتم سكارى، فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية في سورة المائدة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) المائدة: ٩٠-٩١.

فدعي عمر، فقرئت عليه، فلما بلغ "فهل أنتم منتهون" قال عمر رضي الله عنه: انتهينا انتهينا. هذا الحديث الصحيح يروي لنا عن التدرج في تحريم الخمر، و يروي لنا صراع عمر معه، فهو لم يطلب من الله أن يشفيه فرداً، طلب البيان الشافي الذي يتجاوز حسم قرار شخص مثله إلى أن يكون حسماً لمجتمع كامل.

بل هو الفتح يا عمر!

عظم ما في ديننا أن من حملوه لم يكونوا معصومين، كانوا بشراً مثلنا، يخطئون، و يعترفون بأخطائهم و يتعلمون منها، و لو كانوا معصومين فلن نستطيع أن نقنط بهم. لا يمكنك أن تقنط بشخص ولد و هو لا يملك القابلية على الخطأ، على عكس من عمل على إصلاح نفسه للوصول إلى مرتبة إنسانية عليا. كانوا يعترفون بأخطائهم بمنتهى الصدق، يقتحمون مشاكلهم لغرض حلها، و يؤمنون أن نجاحهم في حلها دونما مكابرة أو خجل. خطأ عمر الذي أقر به دونما أي محاولة لإخفائه، كان بسبب إصراره على الحق.. في فتح مكة و موقفه من الوثيقة الخطأ الذي وقع فيه عمر بن الخطاب، كان أنه لم ينتبه إلى أن المرحلة المفصلية التي تمر بها الدعوة من مرحلة التمكين إلى الفتح، لم ينتبه إلى لحظة نزول الآية: "إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا"، الفرق بين الانتصار في الغزوات ما قبل الحديبية و بين الفتح هو أن الغزوات كانت توفر الحماية للدولة الناشئة، لكن الفتح مرحلة أخرى. ما دام مشركو مكة قبلوا بالتفاوض حتى و لو رفضوا أن يضعوا اسم الرحمن، أو يقروا بنبو محمد صلى الله عليه و سلم، فهذا يعني أنهم أقروا بكونه "نِدَاءً"، تربطهم به وثيقة تعترف بقوة كيانه و وجوده، و كان لهذا معنى عند قبائل الجزيرة، و كان ذلك خطوة لا بد منها للفتح. درس الحديبية و كوقف عمر من الوثيقة آنذاك، جعل عمر يفهم الفتح على نحو أعمق، فهم الفتح على أن أكبر من مجرد نص عسكري بين طرفين، و نرى أثر ذلك الفتح في كل فتوحات عمر، و هي الأكثر حسماً و تأثيراً في مسار الحضارة الإسلامية.

رغم الحزن، لا وقت للدموع..

عمر لم ينس الموت يوماً، فتفكيره بالموت مختلفاً أكثر إيجابية و دافعية للعمل، لكنه مثلنا في تجنبه التفكير بموت أحبائه. لم يكن عمر يريد أن يفكر أنه قد يفارق حبيب له، حبيبه الذي تمكن من أن يجعل حبه مقدماً على نفسه، إنه محمد صلى الله عليه و سلم، كان الوحي النازل على محمد هو محور حياته، كان هو محركه و بوصلة حياته. كان عمر يعلم أن موته عليه الصلاة و السلام حق، و أن الوحي خاطبه: "إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ".

و ها هو عليه الصلاة و السلام يقول ما قد يفهم منه أنه راحل، انتفض عمر كما ينتفض أي محب.

جاءت لحظة الحقيقة، و انتفض عمر غير مصدق، كان المنافقون تبادلوا الخبر و هم لا يخفون شماتتهم، و كان عمر لا يزال غير مصدق!

و عندما قال أبو بكر كلماته بعد موت الرسول صلى الله عليه و سلم، جلس عمر أجلسه كلمة من كان يعبد محمداً فإن محمد قد مات، ظلت الكلمة تتردد في أذن عمر، و جاءت الآية كالصفعة أيقظته، كما لو أنه يسمعها للمرة الأولى.

تذكر عمر الفرس و إيوان كسرى المدينتين اللتين ذكرهما رسول الله على فراش موته، فانتقل عمر من حالة الحزن و الفجعة إلى الوعي و الترقب و العمل.

كل ما حصل من انتصارات للأمة لاحقاً، تعود إلى ما فعله رباطة جأش أبو بكر، و جملته التي ذكرت الناس بحقيقة نسوها لحظة المصائب، و هي التي شددت عمر، فأسرع باتخاذ القرار في السقيفة فبايع أبو بكر و حسم القرار، و لو أن التردد دام أكثر قليلاً لتغير كل شيء، و لافتن الناس.

الشيخان: تكامل لا تطابق..

التنافس بين الأشخاص أمر طبيعي في النفس البشري، و عندما يكون التنافس بالخير، يصنع بين المتنافسين رابطة إضافية غير رابطة الخير الذي يؤمنون به و يعملون لأجله، و كثيراً ما يصير وجود المنافسين وسيلة للتعلم، تراقبه، فتتعلم من أخطائه.

العلاقة بين أبو بكر و عمر كانت من هذا النوع، التنافس في الخير الذي تحول مع الوقت ليصير نموذجاً إيجابياً لما يمكن أن تكون عليه العلاقة بين شخصيتين قياديتين.

كلاً منهما كان استثنائياً على نحو استثنائي، تكاملهما معاً هو ما يكمل كلاً منهما فعلاً، تجاوزا الـ "أنا" نحو الـ "نحن" في سبيل قضية الإسلام.

اتضح هذا الموقف تماماً في وفاة الرسول عليه الصلاة و السلام، رباطة جأش أبي بكر أعادت عمر إلى الواقع، و حسم عمر فصل خطابه عبر بالأمر إلى بر الأمان.

و لعل هذا التكامل، هو ما جعل عليه الصلاة و السلام يحددهما بالذات ، ليكونا قدوة للصحابة أنفسهم.

لكل منهما فضله و مكانته، لكن شيء ما في أبو بكر جعله يكون الأنسب ليكون "ال خليفة الأول".
ما هذه الصفة؟

كان أبو بكر مديراً استثنائياً للأزمات، و لا يمكن إلا أن نذكر موقفه في وفاة الرسول عليه الصلاة و السلام، و هذا يكشف عن صفة قيادية بالغة الأهمية، هي الصفة التي يتفوق بها على عمر.

و كانت الردة أزمة كبيرة تعصف بالدولة، و بعد وقت قصير من أزمة وفاة الرسول عليه السلام بل كانت أخطر من وفاة الرسول، لكن قيادة أبي بكر في الأزمة تحديداً، كانت هي الأكثر حكمة و الأكثر حسماً.

لقد رأى في امتناع القبائل عن دفع الزكاة تمرداً على سلطة الدولة كما على الدين، رأى أبو بكر أن هذا التمرد سيكون خرقاً متسعاً لا سبيل لرتقه ما لم يقاتل المرتدين و بحزم. و كان عمر يتدرب، و سيثبت لاحقاً أنه قد أفاد من التدريب إلى أقصى مدى.

عمر في تكامله مع أبي بكر كان يمتلك القدرة على رؤية أزمة قبل وقوعها، و شهدت فترة خلافة أبي بكر قدرة عمر العبقريّة على رؤية أزمة قادمة، و لو لا عبقريته تلك لاختلف كل شيء.

كل تلاوة نتلو بها القرآن اليوم يعود جزء من فضلها إلى عمر، يوم فعل ما فعل قبل أن يرى غيره الأزمة القادمة بزمان بعيد ، أزمة لا تمس الدولة بل تمس جوهر الدين القرآن، و اشار على أبي بكر بجمع القرآن .

كان عمر يدرك أن هذا القرآن هو قوة هذه الأمة، و لو مس حرف واحد منه فسيكون ذلك مطعناً فيه كله.

منجزات أبي بكر في خلافته و قبلها مهمة، و ليس هنا مجال لعدّها، و لكن نزيدها واحدة لا تقل ابداً عن سواها إن لم تفقها، إنها تولية الخلافة لعمر من بعده.

أبو العيال!

أغلب القادة و الرؤساء، يفتتحون عهودهم بالوعود المعسولة التي تبشر الناس بالرخاء و الرفاهية، كان بذل الوعود و العهود في البداية من قبل القادة هو النموذج الأكثر شيوعاً، و كان عدم تحقيق شيء منها هو أكثر شيوعاً أيضاً.

الكذب جزء من "عدة المهنة" للسياسيين، لا يسمونه كذب لكن النتيجة التي يشعر بها الجمهور في نهاية الأمر، هي أنه خدع.

أما بناء النهضة الحقيقيون، فهم لا يفعلون ذلك، يدركون أن الحضارة دربها طويل، و يدركون أن على الشعب أن يضحي أولاً قبل أن ينال مكتسبات الحضارة.

نحن الآن في السنة ١٣ الهجرية، مضت سنتان و ٣ أشهر على وفاة الرسول عليه السلام، و توفي للتو أبو بكر و وصى بالخلافة لعمر بعدما استشار في الأمر كبار الصحابة.

و ها هو عمر يعتلي المنبر، و يتحدث بمخاوف الناس و هواجسهم، لأنه ليس بعيداً عنهم.

هل سيظمنهم؟

و يقول: إن ما وصلهم عنه كان مجرد سوء فهم، و يعدمهم بأنه سيتغير؟

ببساطة كل ما تتداولونه عني ليس صحيحاً فحسب، و أنا متمسك به، شدتي لم تكن يوماً إلا بالحق، لأن المرحلة القادمة ستتطلب عملاً أكبر، ابن الخطاب أبو العيال، رغم كل شدته هو أيضاً في منتهى الشدة في الرحمة و في حنانه على رعيته.

و نزل عمر ليطبق ما قال ليجعل الأرض مصداقاً لكلامه، نزل لترتفع الحضارة.

عزل خالد: نهاية البطل "الأوحد"

الجيل الأول، جيل الصحابة و المهاجرين و الأنصار كان لازال يتمتع بمركزية مهيمنة، لكن عمر كان يدرك أن ذلك مسألة وقت، و خير ما تتربى عليه الأجيال الجديدة، هو انهماكها في مشروع عمل جماعي ' يجعلهم يتشربون الإسلام بينما هم يعملون لأجله.

كان أول ما أمر به عمر بعد توليه الخلافة، عزل خالد بن الوليد و تولية أبي عبيدة بن الجراح محله.

كان لخالد فضله و منجزاته التي رأى عمر أنها لا تضعه فوق القانون، كان يميل إلى الاستقلالية في قرار توزيع الغنائم عن الخليفة، و حجم مكانة خالد المتزايدة تنذر بخطر في الدرب الذي تسير الأمة فيه، كان يمكن لذلك أن يكون نموذجاً جاذباً لسواه ليقلده، فينفرط عقد الدولة و هي لا تزال فتية.

ثلاث جوانب في قرار عزل خالد، و جعلها أول ما صدر من القرارات:
أولها: لا أحد فوق القانون.

ثانيها: السلطة المركزية للدولة فوق الجميع، مهما كانت منجزات هذا الجميع في أقاليم بعيدة ممتدة.

ثالثها: أن يفسح هذا العزل المجال لطاقت جديدة شابة للبروز.

كان هذا من أجل أمور في صلب مشروع الفتح الذي أراد عمر أن يفتح أبوابه للجميع.
التزم خالد بالأمر و صار مساعداً لأبي عبيدة و مستشاراً له، فساهم في ظهور القادة الجدد الذين كان عمر يعدهم بالتدريج، ليس مهم أن تكون الفائدة المهم أن تشارك أن يكون لك دور فاعل في مشروع الفتح الحقيقي، أن يكون المشروع هو القضية الأولى، و كل شيء عداه مجرد تفاصيل.

إلى "قرن الشيطان"

عداء الفرس للعرب بدأ كنوع من الصراع على موارد المياه، اختلط هذا الصراع بالتغذية اليهودية له، استمرت سيطرة الفرس بدولهم المختلفة على الجزء الشمالي الشرقي من جزيرة العرب لمدة تقترب من ألف سنة، إلى أن جاء الإسلام.

كان أبو بكر قد بدأ بتسيير الجيوش على العراق، لكن حصّة بلاد الشام من اهتمامه كانت قد زادت لاحقاً، لكن عمر بن الخطاب و منذ اليوم الأول لخلافته رأى أن يلقي بالثقل كله في الجبهتين معاً، رأى أن هذا الوقت الأنسب لفعل ذلك .. و ذلك مرتبط بظروف تمر بها إمبراطورية فارس.

الخليفة كان يحث الناس على قتال الفرس و يرغبهم في الثواب، و الناس لا يقومون، رغم ذلك لا يجبر أحد على المشاركة في السير لحرب الفرس.

أبو عبيد الثقفي الذي كان أول من انتدب، كان له أثر كبير في تغيير الموقف، كان سيجعل ثقيفاً كلها المتحفزة لإثبات مكانتها في الدولة الجديدة، و تبدو فكرة الاستجابة لنداء عمر بقتال الفرس فرصة ذهبية، و نجح الأمر في جعل التنافس يصب لصالح المشروع.

ستصبح القيادة إذاً لا للمهاجرين و لا للأنصار، بل لمن تبعهم بإحسان، سار على خطاهم الأولى خطوات السبق في التضحية و الإقدام.

العراق جمجمة العرب، و كان من الطبيعي أن يختار الشيطان الجمجمة لكي يغرس قرنيه فيها. فالعراق " رأس العرب" و هو منبع قوتهم، فعزم عمر أن تتوجه الجيوش إلى العراق قبل أن

تحسم الجبهة المفتوحة شمالاً، كان لابد من كسر قرن الشيطان، و تخليص " جمجمة العرب" كنز الرجال من قرن الشيطان، مشروع الفتح كان لابد أن يكسر القرن و يستثمر "الجمجمة".

الطريق إلى القادسية

الطريق إلى النصر الحاسم على قرن الشيطان لم يكن يسراً ، و كان أشبه بعملية تأهيل للأمة في حرب بنائها لذاتها، أربع معارك أساسية تلت إرسال عمر للجيش بقيادة أبي عبيد الثقفي، النمارق، باروسما، وقعة الجصور، البويب.

النمارق كانت المعركة الأولى، و رغم أن الفرس أعدوا لها أقصى الإعداد، إلا أنهم هزموا أمام المسلمين، و أسر قائدهم جابان.

هنا مظهران حضاريان تجليا في هذه المعركة، يبينان التزام أبي عبيدة بما اوصاه به عمر: التقوى أولاً..

فقد حدث أن أحد المسلمين قد منح الأمان للقائد جابان، و هو لا يعرفه بعد أن أسره، فلما عرف أشار البعض بقتله، فرفض لمجرد أن أحد الجنود في الجيش قد منحه الأمان، إنها القيم جزء أساسي من عدة المقاتل.

المظهر الثاني، كان أن المسلمين بعد انتصارهم سيطروا على إقطاعية واسعة كانت لابن خالة كسرى، و سيطروا على خزانته، فوجدوا شجراً ثميناً اسمه "النرسيان" و كان يحرص عليه و لا يدع أحداً غير خاصته أن يتذوقه، فوزعوه على الفلاحين الذين كان محرماً عليهم تذوقه، هذا الموقف يعبر عن عمق العدالة الاجتماعية في نفوس حاملي الرسالة.

معركة باروسما حدثت بعد مدة وجيزة، انتهت بهزيمة منكرة لجيش الفرس، ثم جاء جيش آخر لنجده و هزم أيضاً، هكذا هزمت ثلاثة جيوش للفرس في فترة بسيطة.

لكن وقعة الجسر ستكون مختلفة النتائج ، ستكون درساً صعباً بعد ما تكررت الانتصارات، هزم المسلمون فيها و كان انكسارهم كبيراً، و استشهد فيها أكثر من سبعين صحابي.

و أخذ عمر بجيش القبائل و يسير أرتال الدعم و الإمداد تسير نحو العراق من دون انقطاع، كان المثني بن حارثة من أهم الطاقات التي كشفتها موقعة الجسر لذلك و لاه قيادة جيش المسلمين الذي سيفق ليتحدى جيش بقيادة مهران.

انكسر الفرس في المعركة انكساراً كبيراً، و قتل قائدهم مهران، و كان أثر موقعة البويب مهماً فقد أتاحت للمسلمين أن يقوموا بغارات واسعة و غنموا مغانم مثيرة.

اندفع الفرس يستعملون كل أوراقهم، و كان عمر بن الخطاب مدركاً أن ما بعد البويب سيكون حاسماً، و كان عمر قد تجاوز موضوع الترغيب و الإقناع، و وصل إلى حد التجنيد الإلزامي، و هنا قال عمر قولته الشهيرة: " والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب"

كان يقصد بملوك العرب هذا الإنسان الجديد الذي ولد في كل مسلم كان، هذا الملك المتوج بإيمانه و عزته هو الاستثمار في مشروع الفتح، و كانت القادسية موعدهم.

الكلام لسعد، و لكن اسمعي يا جارة!

كان عمر يدرك أهمية المواجهة الأخيرة بين المسلمين والفرس، وأن الانتصار في هذه المواجهة سيحدد مسار التاريخ والحضارة الإسلامية.

كان عمر يريد لمن يكسر قرن الشيطان أن يكون من الجيل الأول الذي تربى على يديه عليه الصلاة والسلام مباشرة.

لذا كان عمر على وشك أن يكون هو من يتولى قيادة الجيش هذه المرة.

لكن عقد مجلساً لاستشارة الصحابة فيما عزم عليه فكلهم وافقوه على الذهاب إلى العراق إلا عبدالرحمن بن عوف قال: أخشى إن كُسرت أن تضعف المسلمين في سائر أقطار الأرض وإنني أرى أن تبعث رجلاً وتعود إلى المدينة.

فاستصوب عمر والناس عند ذلك رأي ابن عوف

كما أنه أشار لعمر بأن يبعث سعد بن أبي وقاص إلى العراق .

لم سعد تحديداً؟

لسعد عدا مكانته وصحبته هو قرابته من الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام فهو من أحوال الرسول.

كذلك لسعد سجلاً حافلاً: لقد كان يوماً ما ثلث الإسلام، وكان له موقف يوم أحد عندما وقف يدافع عن الرسول الكريم، وكان يُعدُّ أول من رمى بسهم في سبيل الله، والوحيد الذي افتداه الرسول بأبويه.

عمر الذي استخدم رمزية قرابة سعد من الرسول في تجييش الناس حذره من أن تجعله هذه القرابة يعتقد أن له فضلاً غير فضل التزامه بالإسلام!..

عمر وصى سعد وكأنما يوصي الناس أيضاً..

فقال: لكل عادة "عتاد"

وعتاد عادة الخير الصبر.. لكي تنال الحق لا بدّ من الخير، والخير لا بد أن تتعوده، أن يكون جزءاً من سلوكك اليومي.. سلوك كل يوم الذي تفعله بتلقائية ودون طول تفكير.

تصبر على أن تحارب الرشوة.. على احترام مواعيد العمل.. على عدم تضییع الوقت أثناء العمل.. على إتقان العمل كجزء مما أمرنا به ديننا.

سيكون ذلك كالوقوف بوجه التيار العاتي.. تيار المجتمع الذي تعود اللامبالاة وفهم من كل الأمور شكلياتها فقط.. ستجد السخرية والاستهزاء وربما المحاربة لكن هذا الوقوف في وجه التيار سيتحول بالتدريج إلى تغيير مسار التيار.. سيصير الخير عادة عند الناس.

وينبه سعداً وينبهنا إلى أن يتساوى عندنا الذم والمدح في الحق!.. ولكنه لا يزهد في التحبب فحتى الأنبياء طلبوا حب الناس من الله عز وجل.

ورغم أن الحق لم يُبق لعمر صاحباً.. مرحلياً.

لكنه في المحصلة النهائية: جعله الأكثر تأثيراً.. وجعل الناس تحبّه عبر العصور.. ربما أكثر مما فعلت مع أي خليفة أو حاكم آخر.. وربما بفارق كبير.

سار سعد إلى العراق في أربعة آلاف مقاتل ووصل إلى "زرود" في أطراف نجد وجمع منها سبعة آلاف آخرين وكان المثنى ينتظر جيش سعد ومعه حوالي ١٢ ألف مقاتل.

ولكن قبل أن يلتقي سعد بالمثنى. مرض المثنى مرضاً شديداً من جراح أصيب بها في موقعة الجسر وتوفي و أما عمر فقد كتب لسعد يوصيه بتقوى الله كما أوصى سعد أن يترك للجيش مساحة للراحة في هذا المسير الشاق.. وأن يمنع المسلمين من دخول القرى حفاظاً على حرمتها!

إنها الحضارة و أخلاقها وقيمها تتجسد في سلوكياتٍ ربما لم يكن المسلمون كلهم يدركونها بعد. كان المخاض الحضاري كله يجعلهم يتعلمون من عمر الذي ولد من خلال القرآن وتربى على يد الرسول الكريم.

لكن عمر بالمقابل ينبه سعد إلى أن الأخلاق لا تعني الساذجة والطيبة.. لذا كان يعطي نصائح استخباراتية لا بد منها لأي حرب.

كما وصاهم أن يكونوا أشد احتراساً من المعاصي، فالذنوب والمعاصي أشد من العدو علينا؛ فهي قوة مضافة للعدو في سباق الحضارة فإن تساوينا في المعاصي نحن وهم كانت الغلبة لهم بقوتهم.. بعدتهم.

و كأن عمر يوصينا نحن في مسيرنا نحو الحضارة؟
هل هي الوصية التي لن يمكن أن نسير على ذلك الدرب مالم نطبقها؟

كسرى خارج التغطية..

كان عمر حريصاً أن يكتب لسعد كل يوم، كان يريد أن يكون في المشهد..

كي ينظر عبره.. كي يمدَّ بصره عبر الأفق ويرى ما يجب عمله.

أختار عمر وفد من أربعة عشر رجلاً لمحاورة كسرى .

هل كان ثمة أمل في المحاورة؟

هل كان يأمل أن يقبل كسرى بالدعوة..!

ربما لا.. لكن عمر كان يعلم أن التاريخ كله قد مدَّ بصره ليرى ماذا سيفعل المسلمون..

كان عمر يعلم أن ما سيفعله الآن سيترك أثراً على الإنسانية جمعاء.

ليس هذا فقط..

ولو كان هذا لما أحتاج إلى كل هذا الوفد، رسالة واحدة كانت تفي بالغرض.

لكن وفداً من أربعة عشر رجلاً عُرفوا بالذكاء والخبرة والحكمة.. لا بد أن يكون لهم "هدف"

آخر " يتجاوز دعوة كسرى إلى دين الله...

من الواضح أنهم فرقة استطلاعية على أعلى مستوى..

دخولهم القصر ولقاءهم بكسرى سيجعلهم يعرفون عبر لغة الجسد والكلمات ولغة العيون مالا تقوله الكلمات .

ورغم كل بروتوكولات القصر.. ستُظهر الضعف الكامن رغم مظاهر القوة.

لكن كسرى رد باستخفاف مزدوج إنه كان يكتفي بترك أمر العرب لفلاحي القرى!
هو يستخفُّ بهم ويرعاياه في آنٍ واحدٍ وهذا شأن كل الطغاة، يستخفُّون بشعوبهم وبالشعوب
الأخرى على حدٍّ سواء.
الحوار مع كسرى والوفد كان يشبه حواراً مع أطرش يتحدث في موضوعٍ لا علاقة له
بموضوع الحوار .
فخرج الوفد بنتيجةٍ مهمةٍ جداً.
هي أن كسرى غير مدركٍ لما يحدث حوله، ولما سيحدث بملكه.. غير مدركٍ أن التاريخ يدخل
في انعطافةٍ حادة وأن حضارته على وشك أن تصبح مجرد ذكرى من ذكريات التاريخ.
أمر كسرى أشرف الوفد ألا يخرج إلا وهو يحمل على ظهره حملاً ثقيلاً من التراب، لكن أمره
كان حماقة كبيرة تحمل دلالاتٍ رمزية.. ربما دون أن يشعر كسرى فقد سلم "الأرض" لأشراف
العرب.
لكن رستم قائد جيش كسرى كان مدركاً لخطورة الموقف، فطلب من سعد أن يرسل لهم رجلاً
يكلمهم..
فجاء ربعي بن عامر فقال له رستم ماجاء بكم؟
قال: الله جاء بنا (أي رعبٍ ألقى في قلب رستم.. لم يكن يتوقع هذا الجواب، كان يتوقع جواباً عن
الغنائم مثلاً..
رد رستم قد سمعنا قولكم فهل تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه؟
قال : نعم وإن مما سنّ لنا رسول الله عليه السلام ألا نمكن الأعداء أكثر من ثلاث
فاختر واحدة من ثلاث: الإسلام وندعك وأرضك أو الجزاء فنقبل ونكف عنك أو المنابذة في
اليوم الرابع .
فلما كان اليوم الثاني أرسل رستم إلى سعد أن أبعث إلينا بالرجل، فأرسل إليه حذيفة بن محصن
الغلفاني فلم يختلف في العمل والإجابة.
وفي اليوم الثالث أرسل له المغيرة بن شعبة ولم يختلف في العمل والإجابة.
لقد تنبه رستم إلى أن العرب تغيروا، يأتي ثلاث جنود منهم فيتكلم كل منهم الحديث نفسه.
يلتفت إلى من حوله فلا يجد اثنين متفقين على شيء.. فيفهم أن الأمر أخطر مما قد يبدو لكسرى.

ألف عام، أربعة أيام، وثلاث ليال!

الجيش متأهب للقاء.
كل جيش أخذ موقعه في القادسية.. متقابلين.. منتظرين ساعة الصفر..
الهدوء الذي يسبق المعركة يسود الساحة الفاصلة بين الجيشين..
وهناك في معسكر الفرس.. يخرج رستم.. يمدُّ بصره إلى الجهة الأخرى كما لو أنه يريد أن
يجادل القدر ..

فجأة.. ينطلق صوتٌ من معسكر المسلمين ويفزع رستم فقيل له إنما هذا نداؤهم ليقوموا لصلاتهم وعندما سمعهم يصلُّون قال رستم: أكل عمر كبدي (أي قضى عليّ).

في جيش المسلمين ثلاثمائة وبضعة عشر صحابياً، لكن هناك اسم واحد يملك دلالاتٍ كبيرة جداً، اسم لصحابي جليلٍ تم اختياره ليكون داعي الجيش ورائده أي من يثير الحماسة والهمة في الجيش وهو (سلمان الفارسي).

لم يكن هذا الاختيار مجرد صدفة .. اختير سلمان داعي جيش المسلمين ومناديه في حربهم ضد الفرس بني قومه لأن الحرب لم تكن مع الفرس لأنهم فرس بل لظلمهم وتجرُّهم . حتى في لحظة المواجهة الحاسمة مع من تصادفَ أنهم فرس.. سيكون منادي الجيش فارسياً أتبع الرسول لا لأنه عربيٌّ بل لأن رسالته هي الحق.

وفي المعسكر الآخر-معسكر الفرس- من جُنُّدوا طمعاً بأعطيات كسرى.

إنها مسألة مبدأ .. والانحياز للحق كذلك .. وكان سلمان داعي الجيش نموذج على ذلك.

كان عمر يدرك أن التاريخ ينظر إليه، وإلى ذلك الموقع الذي اجتمع فيه الجيشان، وأن كل ما سيحدث سيسجَّل في رصيد تلك الحضارة التي يقوم بصنعها.

استمرت المواجهة أربعة أيام أطلق على كل منها اسم خاص به..

أرماث .. أغواث .. أعماس والقادسية .

في اليوم الأول وجه سعد بيان إلى الجيش يأمرهم بصلاة الظهر ثم التكبير أربع مرات والزحف بعدها .

أيُّ قوةٍ أن تجد العزَّة والقوَّة والمنعة في كل تفصيل من تفاصيل دينك، أن تجد أنه يميزك عن كل من سبقك من الأمم والتجارب الحضارية..

وتحقيقاً لوصية عمر لسعد بقراءة سورة الجهاد (الأنفال) على الجيش كله، والتي كان يريد عمر من خلالها أن يستحضر المسلمون يوم بدر التي نزلت السورة بعده بالضبط..

يوم بدر الذي كان يشبه القادسية فعلاً..

مواجهة قريش الأقوى عُدَّةً وعدداً والمسلمين الذين كانوا أقل عدداً وعُدَّةً.

كفار مكة كانوا يريدون استئصال التجربة الجديدة..

وكفار فارس كذلك .. قرن الشيطان كان لابد له أن يستهدف المسلمين..

تلك رسالة سورة الأنفال . أن يشخصوا بأبصارهم إلى بدر ويستحضرونها.

استمرت المعركة أربعة أيامٍ وثلاث ليالٍ أبدى المسلمون فيها ما هو أكثر من الشجاعة والإقدام.. أبدوا الإبداع و الابتكار والإتقان وأيضاً الالتزام .

كما أبدع المسلمون في مواجهة الفيلة بطريقة تجعل من الفيلة سلاحاً ضد الفرس أنفسهم .

وفي اليوم الرابع كان مقتل رستم حدثاً فاصلاً..

وما إن انطلقت صيحة (قتلت رستم ورب الكعبة) حتى انكسر جيش الفرس وفرَّ بقية القادة نحو النهر فتتبعهم المسلمون وقضوا عليهم.

ألف سنة من احتلال قرن الشيطان للعراق، انتهى بتلك المعركة الفاصلة: أربعة أيام وثلاث ليال.

وعندما دخل سعدٌ إيوان كسرى في المدائن صَلَّى ثمانِي ركعاتٍ هي صلاة الفتح، سُنَّه الرسول عليه السلام.

النصر في القادسية قادهم نحو انتصارات متتالية، ففتحت المدائن بلا قتال، وفرَّ كسرى وبقي هارباً حتى قُتِل في خراسان في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

كان عمر قد قرر أن يقف عند مدينة نهاوند فيوقف الفتوحات العسكرية ويتفرغ للفتوحات الإدارية..

لكن الفتح أدَّى لفتح كل بلاد فارس.. حيث جاء كل وجهاء المدن يطلبون الصلح وفتحت بقية فارس بلا قتال.

لما أتى عمر خبير الفتح قام في الناس وقرأ عليهم سورة الفتح التي قرأها على رسول الله عليه السلام بعد صلح الحديبية ثم تحدث عن الأمانة الثقيلة وعن كونه "ليس معلمهم إلا بالعمل"، الفتح كان بالنسبة له ليس لإظهار الفخر والقوة بل لتأكيد وتكريس قيمة العدالة الاجتماعية.

الفتح، من أبواب متفرقة

للشام وقعٌ معينٌ، وأثرٌ عند كل المسلمين..

سكنت الشام عقول المسلمين وقلوبهم حتى قبل أن يسلم أكثرهم!

فبمجرد معرفة أن الرسول عليه الصلاة والسلام أسري إليها ومنها كان معراجُه إلى السماء كان يملأ عقولهم وقلوبهم بوقعٍ تواقٍ إلى هذه الأرض " المباركة".

كذلك أحاديثه عليه الصلاة والسلام عن فضل الشام تلهب حماسهم ووجدانهم، روحانية الشام أمر غامض لكنّه حقيقي.. تشعر بصلاتك مختلفة.. ومناجاتك مختلفة.

لم يكن حصار دمشق يسيراً فقد استمر أشهراً طويلةً، وكان حصاراً من هذا النوع في برد دمشق جديداً على المسلمين.

خلال هذه الفترة تمكن المسلمون من فتح حمص، لكنهم أيضاً اضطروا إلى الانسحاب منها عندما قام هرقل باستنفار كل جنده ووصول إمداداتٍ واسعةٍ له من إنطاكية فكان لابداً من تجميع جيش المسلمين لمواجهة مستجدات الوضع..

ولعل هذا الانسحاب قد ساهم في فتح "الثغرة" في فتح دمشق

الانسحاب يؤدي إلى الفتح عندما يكون كما فعله المسلمون عندما انسحبوا من حمص وردُّوا إلى أهلها الجزية!

لم يعرف التاريخ فاتحاً رد "مغانمه" عندما انسحب إلا المسلمين

وهذا ما حدث في دمشق!

لقد قبل عمر بالأمر رغم كراهته له.. لأنهم اتفقوا جميعاً على قبوله !

هذا عمر المتشبع بقيم الإسلام وهكذا تصنع الحضارة وعليه تقام.

لا حقاً، فتح دمشق لم يحدث إلا بتلك الثغرة التي أحدثها الانسحاب من حمص!

كان لإعادة الجزية إلى أهل حمص تأثيرٌ كبيرٌ على أهل دمشق، خاصة عندما رأى أهل القرى المحيطة بدمشق حُسن تعامل المسلمين معهم.

في الموعد المحدد تسلق خالدٌ ورجاله الأسوار وفتحوا الباب الشرقي وتوغلوا في المدينة بينما دخل أبو عبيدة من باب الجابية مستغلاً ارتباك الروم الذين فوجئوا بخالد، ودخل من باب توما عمرو بن العاص، وباب الفراديس كان بقيادة شرحبيل بين حسنة، والباب الصغير بقيادة يزيد بن سفيان. هكذا فتحت دمشق من عدة أبواب متفرقة.. كما لو أنهم يجسدون نصيحة يعقوب لولده عشية تحقق البشارة.

غُلبَت الروم!..

في مكة بدأت الحكاية..

نزلت سورة الروم تحكي هزيمة الروم وانتصار المسلمين، تفتُح أفق المسلمين وتخبرهم أنهم جزء مهم من هذا العالم.

أحداث ذلك الفصل كان في "يرموك" ..

حدثت موقعة اليرموك في سنة ١٥ هجرية وتعد المعركة الفاصلة في فتح بلاد الشام وقد بلغ عدد الصحابة في الجيش ألف صحابي.

جيش الروم بقيادة هرقل والمسلمون خمس قواد وعند اشتداد المعركة صار خالد بن الوليد هو القائد التنفيذي لكل الجيش ..

حيث بقي جيش المسلمون يتحرك وجيش الروم يسير خلفه حتى وصل المسلمون إلى محاذة الوادي الضخم وعبروا النهر إلى الجهة اليمنى أما الروم استقروا في الوادي دون أن ينتبهوا إلى الفخ المرسوم بدقة والذي جعل المسلمين يتحكمون بالمرمر الوحيد الذي يتمكن الروم من الخروج منه.

ما وقع فيه الروم من خطأ في اختيار الموقع ساهم في "التوازن" الذي مهّد لنصر المسلمين. خطأ لا يمكن أن يكون بالصدفة.. إنه التدخل الإلهي في الأحداث.

استمرت المعركة ستة أيام، كانت الخمس الأولى معارك أُلحقت بهجماتٍ قام بها الروم مراراً وتكراراً على المسلمين دون أن يتمكنوا من كسرهم.

ساهمت الهجمات في أمرين:

الأول: جعلت المسلمين في وضعٍ مريحٍ فهم يدافعون والروم تهاجم وهذا أيسر.

الثاني: أن الهجمات المتتالية بيّنت أي كبينة أقوى داخل جيش الروم.

في اليوم الخامس وقع قائد الروم باهان في خطأ آخر حيث طلب هدنة لثلاثة أيام..

فعرف خالد أن الروم أنهكوا، وأن اليوم السادس هو الحاسم.

اختار خالد الكتيبة الأرمنية ليوجه هجومه عليها فكان القضاء على هذه الكتيبة بمثابة ضربةٍ قاصمةٍ للجيش كله ..

هزم الأقوى فكان من الطبيعي أن ينكسر الأضعف ففرت فلول الروم المنكسرة، فترك خالد الكتيبة بقيادة ضرار بن الأزور عند الممر الضيق الذي يخرج منه الروم من الوادي فكانت هزيمتهم مضاعفة، واستمر خالد بمطاردة هرقل حتى مشارف دمشق . انتصر المسلمون فكانت معركة اليرموك آخر المعارك الكبيرة في بلاد الشام. "معركة القادسية واليرموك هما الموقعتين اللتين رسمتا خريطة العالم الجديد الذي بناه المسلمون"

من كان يصدق في مدة حتماً تقل عن ربع قرنٍ سيطيح المسلمون الذين كانوا مستضعفين في مكة بالقوتين معاً؟

لا أحد سيصدق بالتأكيد.. لكن هذا ماحدث.

في حضرة المكان..

لا فرق بين لقاء وفد المسلمين بكسرى ولقاءهم برستم وبالروم . المظاهر الفارغة نفسها، التفاخر نفسه، الاتكاء نفسه على الماديات لا قيمة حقيقية لها بمعايير القيم الدينية.

تلك الطبقة.. تلك الهوة الهائلة بين الطبقات.. انقسام المجتمع إلى أسيادٍ وعبيدٍ.. وذلك التجبر في العلاقة بين الحاكم والمحكوم.

كل هذا يجعل من هرقل يشبه كسرى، ويجعل من الفرس كالروم.

ويجعل المسلمين (خارج القوسين) يجعلهم على الأقل ينتمون لمنظومة حضارية قيمية مختلفة.

فلكي يكون هناك بذخ فاحش سيكون هناك فقر مدقع وعلى نحوٍ حتمي سيكون هناك سيدٌ وعبيدٌ.

لذا كان من الواضح أن فهم عمر للعدالة الاجتماعية و اعتبارها قاعدة أساسية في مشروع فتحه الحضاري هو امتداداً لعقيدة التوحيد.

دخول عمر لبيت المقدس عُرض بأكثر من طريقة، القصة الأشهر هي قصة رواها نصارى بيت المقدس أنفسهم وكانوا شهوداً على دخوله للقدس والذي ترك الأثر الكبير في نفوس النصارى وصارت "صورة الخليفة الرجل" ايقونة في كنائسهم فالحدث مجد حتى بالنسبة للنصارى .

إنها الصورة التي التقطها " العقل الجمعي" لعمر والتي ظل يشتهي أن تتكرر في كل حاكم مر عليه عبر العصور.

دخل عمر القدس، وصل المسجد الأقصى حيث أسري بالنبي ومن حيث عُرج به..

دخل حضرة المكان.. في حضوره المهيّب.. كما لو أنه التقى بآثاره عليه الصلاة والسلام

وها هو عمر يقف في محراب داود ثم يقرأ سجدة "ص"

فسجد .. وسجدنا معه..

العهد العمري، بنسختها الكاملة

وثائق نادرة عبر التاريخ تركت أثراً ومثالاً لقيم العدالة على مرّ التاريخ.
من ضمنها "العهد العمري" الوثيقة التي كتب فيها عمر الصلح مع أهل القدس وكان صلحاً لأهل الشام عامة.
جاء بها عمر بنفسه من المدينة ليصالح أهل القدس ويعقد معهم الوثيقة التي ستتحدّى التاريخ وتبقى مثال لقيم الإسلام من تسامح وتعايش ضمن حزمة أشياء أخرى منها العزة والنصر..
كما لو أننا عندما فقدنا عزتنا ونصرنا فقدنا التعايش والتسامح، كما لو أنها تأتي حزمة واحدة لا تنفصل.
كما قال عمر بن الخطاب: نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فإن ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله!
العهد العمري تتحدّى أي منتصر في التاريخ غير المسلمين منح حقوقاً لمن هُزم واستسلم كهذه العهد العمري.
كل المنتصرين عبر التاريخ كانوا يأخذون كل شيء إلا المسلمين !
كانوا يجعلون الشعوب المهزومة تنتصر أيضاً بانتصارهم ولو بعد حين..
العهد أعطتهم " حماية القدس" من اليهود وقد كان أهل القدس يتخوفون آنذاك من أطماع مستمرة لليهود، مقابل الجزية، وأن لا يحق لهم أن يؤووا الروم واللصوص ومن يريد أن يسير معهم فهو في مأمن ويستطيع أن يأخذ كل أمواله ليس هذا فقط فمن كان ساكناً في القدس وليس من أهلها فله مثل ما لأهلها .
نستطيع تخيل صدمة أهل القدس بهذه العهد..
هذا هو الفهم العمري للإسلام، المنطلق من العبودية لله الذي أنتج هذه العهد التي هي المثال الأعلى للتسامح عبر العصور.
لكن التسامح لا يعني أن تسامح في ثوابتك وتتنازل عنها!
و لا يعني أن تخفي هويتك كي لا ينزعج أحدٌ منها!
على العكس تكون معتزلاً بها، ثابتاً عليها، وتعامل الآخرين بما علّمه لك القرآن وما سنّه نبيك..
التسامح لم يمنع عمر من أن يدعو عجز نصرانية إلى الإسلام وعندما لم تقبل فقال: اللهم فاشهد .. لا إكراه في الدين.
إيمانه بالتسامح لم يجعله يُعرض عن دعوته إلى الإسلام ولم يجعله يُكرهها عليه.
العهد العمري لم تكن حبراً على ورقٍ.. كانت حقيقة.
في اليوم نفسه الذي وقعت في الوثيقة تصرف عمر بطريقة تجعل من العهد حقيقة واقعة.. سلك سلوكاً واقعياً يجسد العهد ويجسد ما أدى لها.

أبو العيال، وأمّ الدنيا!

نسمع كثيراً عن أشخاص يشعرون أنهم غرباء في أوطانهم..

يشعرون أن أوطانهم ليست أوطانهم..
هكذا كان حال مصر عشية الفتح الإسلامي
كان المصريون على حبهم لبلدهم يشعرون أنهم غرباء فيه.
يشعرون أنها أم الجميع .. أم الدنيا.. لكنها ليست أهم تحديداً.
الروم في مصر هم من أوصل المصريين إلى هذا..
كان يختلف عن الفرس في العراق وعن الروم في الشام بأنه كان أكثر في مصر منه في العراق والشام.
كان عداؤ الروم لمصر من النوع الشخصي كان يريدون إلغاء المذهب الذي يتبعه المصريون.
ليس الاضطهاد الديني فقط...!
كان المصريون ممنوعين من الدخول إلى المدن الرئيسية التي استوطنتها الروم، لم يكن لهم حق الدخول إلى الإسكندرية فقط الخدم من المصريين كان يمكن لهم أن يدخلوها.
فكيف يمكن للمصريين إلا أن يشعروا أنهم غرباء في بلادهم؟
هكذا كان وضع مصر عشية الفتح.
وهذا يفسر سبب انضمام الكثير من سكان القرى لجيش المسلمين ومساندتهم في توغل وفتح بعض المناطق والأراضي بسهولة.
كان يخشى عمر من التوسع السريع المستمر أن يكون سبباً في ضعف الدولة، كان يريد أن ينضج مشروع الفتح بمشروعات الفتح الإدارية التي تحمي الفتح لذلك كان عمر يؤخر فتح مصر كما أن عدد الصحابة مع عمرو بن العاص قليلاً وأغلب الجيش من قبيلة "عك" وكان هذا مقلقاً لعمر! .
لذلك أرسل أربعة من خيار الصحابة يكونون في المقدمة ليحسموا الفتح.
بعد سقوط حصن بابلليون فقد الروم معظم مواقعهم في مصر ولكن الإسكندرية لا تزال في أيديهم فاتجه بجيشه إليها وفرض عليها حصاراً برياً استمر أربعة شهور ولم يجدي، فقرر عمرو أن يقتحم المدينة وعهد إلى عبادة بن الصامت بذلك، فنجح في اقتحامها وجاء المقوقس ووقع معاهدة مع المسلمين تنص على انتهاء حكم الدولة البيزنطية لمصر وجلاء الروم عنها ودفع الجزية للمسلمين دينارين في السنة عن كل شخص، وإعفاء الأطفال والشيوخ والنساء منها..
لقد جعل مصر تدخل عصراً جديداً من العدل، أعاد المصريين لمصر وأعاد المواطنين لوطنهم.
لكن هذا ليس للفتح الإسلامي لمصر فقط بل هو لكل فتح..
يكسر الإسلام غربتك، يجعلك تشعر أن في هذه الحياة ما يستحق أن تنهض صباحاً من أجله، إنها مسؤوليتك في هذه الأرض.. في جعلها أفضل.
يرجعك الإسلام إلى نفسك.. نفسك الحقيقة.. يمنحك الأمان كما لو كنت قد عدت إلى حضن أمك بعد طول غياب.

الوقائع الشخصية لأزمة عامة

عامان من عهد عمر الحافل بالمنجزات .. لم تكن سنوات الفتح مزدهرة دوماً ..
فالفتح حياة كاملة ..
والحياة فيها يسر وعسر ..
الفتح ليس مجرد انتصار في مواجهة عدو ما ، عسكرياً أو اقتصادياً أو في أي مجال منافسة وإبداع ..
إنه أيضاً مواجهة الكوارث والأزمات الطبيعية .. وقدرته على اجتياز الامتحان .
وقد مر عمر بامتحان ما ، ترك علامة فارقة في الفقه العمري ومن ثم الفقه الإسلامي كله .

عام الرمادة :

كانت الرمادة جوعاً شديداً أصاب الناس في الجزيرة العربية لانقطاع المطر .
وقد روي أن عمر عسَّ المدينة ذات ليلة عام الرمادة ، فلم يجد أحداً يضحك ، ولا يتحدث الناس في منازلهم على العادة ، ولم ير سائلاً يسأل ، فسأل عن سبب ذلك ، فقيل له (يا أمير المؤمنين ، إن السؤال سألوا فلم يعطوا ، فقطعوا السؤال ، والناس في هم وضيق ، فهم لا يتحدثون ولا يضحكون).

لماذا سمي عام الرمادة ؟!

لأسوداد الأرض من قلة المطر حتى عاد لونها شبيهاً بالرماد .

ووجد عمر نفسه في مواجهة ..

مواجهة استقرت عمر الخليفة ، وعمر الفقيه ، وعمر الإداري ، وعمر الإنسان ، استقرته إلى أقصى حد .
كان أسوأ ما في عام الرمادة ، هو ذلك الشعور بأن الجفاف كان عقوبة منه عز وجل على عمل ما بدر من المسلمين .
مواجهة العدو ، مواجهة تعرف تمام أنك فيها على الحق وأنه على الباطل ..
لكن عندما تكون مواجهتك مع كارثة طبيعية ومن دون فعل بشري واضح فإن احتمالية أن تكون هذه الكارثة هي عقوبة منه عز وجل ..
عقوبة على ذنب ارتكبه المجتمع .. وعلى معصية قد فشلت بين الناس أو على الأقل على ذنب ترتكبه صفة ما .

(خطب عمر بن الخطاب الناس في زمان الرمادة ، فقال : أيها الناس اتقوا الله في أنفسكم وفيما غاب عن الناس من أمركم ، فقد ابتليت بكم وابتليتكم بي ، فما أدري السخطة عليّ دونكم أو عليكم دوني ، أو قد عمّنتي وعمّتكم فهلّموا فلندع الله يصلح قلوبنا ، وأن يرحمنا ، وأن يرفع عنا المحن . قال : فرئي عمر يومئذ رافعاً يديه يدعو الله ، ودعا الناس وبكى ، وبكى الناس ملياً ثم نزل ، قال : أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : سمعت عمر يقول أيها الناس إنني أخشى أن تكون سخطة عمّتنا جميعاً فاعتبوا ربكم ، وانزعوا وتوبوا إليه).

عامل المسؤولية الإنسانية في هذا الجفاف ، كان هو أكثر ما يخيف عمر ، أي أن يكون هذا الجفاف قد نزل نتيجة لفعل إنسانيّ ، يخشى أن يكون قد فعله هو وتُعاقب به الأمة كلها ، أو أن يكون فعل الأمة ، فيعاقبون جميعاً ..

دعوة عمر هنا لم تكن إلى إزالة الجفاف أو العقوبة ابتداءً .. بل كانت إزالة مسبباتها أولاً ..

إلى إصلاح القلوب !! ومن ثمّ طلب الرحمة .. ورفع الجفاف . إنها مواجهة النفس واتهامها دوماً ، بدلا من البحث هم «شّماعه» لإلقاء اللوم عليها ..

* * *

لكنّ هذا الاتهام الجاهز ، والاستجواب اللاحق ، ليس كل شيء .. كما أنه ليس وسيلة ليكون جلد الذات هو كل الفعل الذي سيحدث ..

على العكس ، سيكون اتهام الذات ، وسيلة للعمل والفاعلية .. لن يكون البكاء وطلب المغفرة ، هو الحل للحصول على المغفرة ، دون أن يتواءم ذلك مع عمل في ميدان التطبيق ..

كان الاستغفار ومواجهة الذات بتقصيرها جزءاً أساسياً من استراتيجية إدارة الأزمة والكارثة ..

لكنه لم يكن كل شيء !

استنفر عمر كل ما في الدولة ..

استخدم أولاً بيت المال في المدينة ، فكان يولم كل ليلة لا يقل عن عشرة آلاف من العرب الذين تجمعوا حول المدينة حتى قيل إن عددهم قد بلغ خمسين ألفاً من القبائل والبدو الذين لم يجدوا ما ينقذهم من الجوع غير تجمعهم حول المدينة .

كما أوقف عمر تطبيق حد السرقة في تلك الظروف العصبية ..

فعمر ، الذي أوقف بالشبهة الحدود ، وقال قولته التي صارت مرجعاً فقهياً : لئن أعطل الحدود بالشبهات ، خير لي من أن أقيمها بالشبهات .

من هذا ؟ من الذي يقول إن تعطيل الحدود بالشبهة خير من إقامتها على الشبهة ؟!

إنه عمر الشديد .. لكن هذا جزء من شدته ، فهو شديد في الفهم قبل أن يكون شديداً في التطبيق ، وتطبيقه قائم على فهمه الدقيق .. وقد فهم عمر أن قطع الأسباب التي تؤدي إلى السرقة أهم وأسبق من قطع الأيدي التي تسرق .

كان عمر يروّ لأساليب متقشّفة دقيقة في الطبخ وإعداد الطعام ، وكان يقوم بنفسه ، وهو أمير المؤمنين ، يعلم النسوة كيف يقمن بذلك .. (عن حزام بن هشام عن أبيه قال : رأيت عمر بن الخطاب عام الرمادة مرّاً على امرأة وهي تعصد عصيدة لها فقال : ليس هكذا تعصدين ، ثم أخذ المسوط (الخشبة) فقال : هكذا – فأراها).

عمر بنفسه يقوم بذلك ..

لا يأمر بذلك على المنبر .. بل يقوم بذلك بيديه إنه "معلمهم بالعمل" ..

حتى في طرق الترشيذ !.

لكن هذه الاجراءات الإدارية ، على أهميتها التاريخية وأهميتها الفقهية ، لا يمكن أن تقارن بالجانب الشخصي من تفاعل عمر بن الخطاب الانسان ، عمر "ابي العيال" ..
عمر الذي نتمنى لو كان مسؤولنا وحكامنا لهم ولو جزء بسيط من شعوره تجاه "رعيته" وشعبه في الأزمات ..

(عن السائب بن يزيد قال : ركب عمر بن الخطاب عام الرمادة دابة فرائث شعيراً (خالط روثها الشعير) فرأها عمر فقال : المسلمون يموتون هزلاً وهذه الدابة تأكل الشعير ! لا والله ! لا أركبها حتى يحيا الناس).

صار يمشي على قدميه تحت شمس المدينة الملتهبة ! ، ويركب أحيانا مع الآخرين ، ولكنه لا يركب على دابة تأكل مما يأكل الناس وهم بأمس الحاجة إليه ..

هل تعاقب نفسك يا عمر !؟

لا .. الأمر أعمق من ذلك إنه يعلم الناس ... يعلمهم أن لا يركبوا الدواب ؟ لا بالتأكيد لكن الناس ستسأل مستغربة : لم يفعل أمير المؤمنين ذلك ؟ وسيكون الجواب : لأن دابته أكلت مما يحب أن يكون للناس ، وسيكون ذلك درساً بليغاً لهم ، عملياً تماماً ، أن لا يتساهلوا في ذلك .

(عن أنس بن مالك قال : تفرقر بطن عمر بن الخطاب ، وكان يأكل الزيت عام الرمادة وكان حرّم عليه السمن ، فنقر بطنه بإصبعه وقال : تفرقر تفرقرك إنه ليس لك عندنا غيره حتى يحيا الناس...)

كان عمر قد حرّم السمن على نفسه .. لا يأكل إلا الزيت ، وكان تفرقر البطن علامة على الجوع حيث لا يدخل الجوف إلا سوائل .. لكن عمر يخاطب بطنه قائلاً : ليس لك عندنا غير الزيت حتى يشبع الناس.

(عن صفية بنت أبي عبيد قالت : حدثني بعض نساء عمر قالت : ما قرّب عمر امرأة زمن الرمادة حتى أحيي الناس ، همّا !).

هذا هو عمر ..

أخذه إحساسه بهمّ الامة ، وحمله له على ظهره ، حتى من حاجاته الإنسانية كرجل ، فصار لا يقرب امرأة من نسائه..

وكيف يفعل ؟ ، وهو الذي منع نفسه حتى من الشبع!..

لقد ترك كل ذلك جانبا .. نحّاه كما لو لم يكن ..

أحمل هم الامة على ظهري .. في رأسي .. في قلبي ..

لا أستطيع أن أفكر في شيء آخر .. إلى أن تتجلي الأزمة .

* * *

وفي عام الرمادة ، وقعت تلك الحادثة التي دخلت التاريخ ..

(عن زيد بن أسلم ، عن أبيه قال : خرجنا مع عمر بن الخطاب إلى حرة واقم ، حتى إذا كنا بصرار إذا نار ، فقال : يا أسلم ، إني لأرى ها هنا ركبا قصر بهم الليل والبرد ، انطلق بنا ، فخرجنا نهروا حتى دنونا منهم ، فإذا بامرأة معها صبيان صغار وقدر منصوبة على نار و صبيانها يتضاغون (يعولون) ، فقال عمر : السلام عليكم يا أصحاب الضوء ، وكره أن يقول : يا أصحاب النار ، فقالت : وعليكم السلام ، فقال : أدنو ؟ فقالت : ادن بخير أو ادع ، فدنا فقال : ما بالكم ؟ قالت : قصر بنا البرد ، قال : فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون ؟ قالت : الجوع ، قال : فأي شيء في هذه القدر ؟ قالت : ما أسكنهم به حتى يناموا ، والله بيننا وبين عمر ، فقال أي رحمك الله ، وما يدري عمر بكم ؟ قالت يتولى عمر أمرنا ثم يغفل عنا . قال : فأقبل علي فقال : انطلق بنا فخرجنا نهروا حتى أتينا دار الدقيق ، فأخرج عدلاً من دقيق وكية من شحم ، فقال : أحمله علي ، فقلت : أنا أحمله عنك ، قال : أنت تحمل عني وزري يوم القيامة لا أم لك ؟ فحملته عليه فانطلق ، وانطلقت معه إليها ، نهروا ، فألقى ذلك عندها وأخرج من الدقيق شيئاً ، فجعل يقول لها : ذري علي ، وأنا أحرك لك ، وجعل ينفخ تحت القدر ثم أنزلها ، فقال : أبغيني شيئاً فأنته بصفحة فارغة فأفرغها فيها ثم جعل يقول لها : أطعمهم وانا أسطح لهم ، فلم يزل حتى شبعوا ، وترك عندها فضل ذلك ، وقام وقمت معه ، فجعلت تقول جزاك الله خيراً ، كنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين ، فيقول : قلبي خيرا إذا جئت أمير المؤمنين وحدثني هناك إن شاء الله ، ثم تنحى ناحية عنها ثم استقبلها فربض مريضاً ، فقلنا له إن لنا شأننا غير هذا ، ولا يكلمني حتى رأيت الصبية يصطرعون ثم ناموا وهدأوا ، فقال : يا أسلم ، إن الجوع أسهرهم وأبكاهم ، فأحببت أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت).

أبو العيال .. حقا .

ثم انجلت الأزمة ونزل المطر ، وأخذ العرب الذين أقاموا حول المدينة طيلة أعوام الرمادة يرتحلون .

* * *

في جوف الليل ..

طيلة أعوام الرمادة ..

كان عمر يذهب ليلتقي بربه ..
كان يسجد ليقترّب ويناجيه ..
يختصر كل ما يريد في طلب واحد ..
كان يطلب شيئاً واحداً كما نقل لنا ابنه ، عبد الله ..

(كان عمر بن الخطاب أحدث في زمان الرمادة أمراً ما كان يفعله ، لقد كان يصلي بالناس بالعشاء ، ثم يخرج متى يدخل بيته ، فلا يزال يصلي حتى يكون آخر الليل ، ثم يخرج فيأتي الألقاب فيطوف عليه ، وإنني لأسمعه ليلة في السحر وهو يقول : اللهم لا تجعل هلاك أمة محمد على يدي)
أنت يا عمر ؟

هلاك أمة محمد على يدك !..
بل رفعتها يا عمر .. بل نهضتها يا عمر ..
في عام الرمادة يا عمر ، أخرجتنا من كل رمادة يمكن أن نمر فيها ، لا ، لم تخرجنا ، بل دللتنا على طريق الخروج منها ..
الآن نفهم كم كانت ضرورية تلك المحنة التي مر بها المسلمون ، كي نعرف كم هو عظيم القائد المسلم ، باني الحضارة المسلم ، كي نعرف أن ذلك ليس نظرية ، بل حقيقة غيرت التاريخ .
وفي جوف الليل ، أخرج من تحت رمادك ..
وقل :
اللهم اجعل يديّ تساهمان في رفعة أمة محمد
وعندما يطلع الفجر : اعمل على ذلك !.

المرأة الأخرى ، في حياة عمر بن الخطاب ..

في حياة كل رجل .. عدة نساء ..
أم لا يمكن أن تجازي .. أخت كانت موجودة دوماً .. رفيقة درب جعلته أكثر يسراً وأقل وعورة ، وأحياناً دلت على الدرب ..
وابنة يعيد الرجل اكتشاف طفولته ونقائه عبرها ، ثم يكتشف كهولته فجأةً عبرها أيضاً كل رجل ، في حياته عدة نساء ..
لا نعرف الكثير عن أم عمر ، حنّمة بنت هشام بن المغيرة ، سوى أنها كانت ترتبط بصلة قرابة بأبي جهل .. لم يرد شيء عن موقفها من الإسلام ، سلباً أو إيجاباً .. مما قد يرجح وفاتها قبل البعثة ، أو قبل إسلام عمر على الأقل ..
ولا نعرف الكثير عن زوجته أم حفصة وعبدالله زينب بنت مضعون ، التي أسلمت معه ، وكان عبدالله هو أول من ولد في الإسلام ..
لكننا نعرف دور أخته فاطمة في إسلامه كما تقدم ..

ونعرف علاقته المميزة بابنته التي صارت أما لأبيها : أم المؤمنين حفصة .
لكن هناك امرأة أخرى في حياة عمر .. لم نعرف عنها إلا القليل ..
في الحقيقة ، لم نعرف عنها شيئاً .

* * *

عمر متهم بكونه عدو للمرأة .. متهم من قبل من ؟ متهم من قبل مجموعة معينة تنتمي لتيار حضاري آخر غير الإسلام ، حتى وإن لم يتخل هؤلاء عن الإسلام ، لكنهم في التيار الذي ينتمون له يؤكدون على نمط معين ووضع خاص للمرأة .
هناك امرأة أخرى لم يكن عمر عدواً لها ..
بل كان النصر الأول لها .

أن يكون عمر عدواً لنموذج معين للمرأة ، ونصيراً لنموذج آخر مضاد تماماً ، هو جزء من توصيفه الوظيفي .. وظيفة أن يكون فاروقاً بين الحق والباطل ..

* * *

من هي المرأة التي عاهاها عمر ؟ ولم عاهاها ؟ المرأة التي عاهاها عمر هي المرأة الأكثر سواداً وانتشاراً عبر التاريخ .. لا شك في ذلك ..

إنها المرأة التي تم إقناعها عبر مختلف الطرق ، وفي مختلف العصور ، ومختلف العصور ، ومختلف المدنيات الإنسانية ، إنها لم تخلق إلا لتكون متعة للرجل .. إنها ليست سوى أداة متعة له .. وأن كل حياتها تتمركز حول هذا ، حول شهوة الرجل وإرضائه .. الإعداد والاستعداد لهذا ، واستخدام هذا أيضاً في لعبة جرّ الحبل التاريخية ..

لكن صانع الحضارة ذاك الذي كان عقله يعمل بنظام تشغيل قرآني ، كان لا يمكن إلا أن يكون عدواً لهذا النموذج ، حتى لو بدا أنه عدو للمرأة ، بسبب انتشار هذا النموذج عند النساء وقولبتن فيه ..

كان الإصرار على لعب دور أداة المتعة من قبل نموذج المرأة هذا ، يجعل الرجل أيضاً ينجز في لعبة التمتع والإمتاع .. بعيداً عن دوره الحقيقي .. بعيداً عن دورهما الحقيقي معاً "كإنسان" قبل أن يكون ذكراً أو أنثى ..

كان لا بد أن يكون عمر ضد هذا النموذج .

* * *

نموذج المرأة – أداة المتعة لم يكن من إنتاج جاهلية العرب فحسب .. ولا حتى من نتاج جاهليات الفرس والروم المتنكرة خلف الأقنعة الحضارية ..

إنه النموذج الأكثر سواداً في عقر دار الحضارة المعاصرة ، التي تتشقق بحرية المرأة ومساواتها بالرجل ، ولكنها في الوقت ذاته ، تسوّق عبر إعلانها نمطاً يجعل المرأة ليست أكثر من سلعة .. بل أسوأ ، صارت المرأة وسيلة لترويج سلع أخرى لا علاقة لها بالمرأة .
ويرسخ ذلك أكثر فأكثر نمط المرأة – أداة المتعة ..

* * *

حتى موقفه المعروف الذي وافقه فيه الوحي لاحقاً، عندما طلب من الرسول الكريم أن يحجب نسائه ، لم يقصد فيه عزلهن عن دورهن الاجتماعي ، فدور أمهات المؤمنين ، قد بقي فاعلاً وقوياً ، وكان عمر بالذات يستشيرهن ويدخل عليهن ويعظهن كما في حادثة مشهورة أخرى ، لكن الحجاب كان لتحديد كل نية سيئة ، نعرف جميعاً أن محاولة استئصالها تماماً غير مجدية ، وأن من الأجدى "وضع الحجاب" ، الذي لا يحيد فاعلية المرأة عن دورها الاجتماعي ، ولا يحارب طواحين الهواء بمعارك خاسرة سلفاً لأنها تحارب جزءاً من الطبيعة البشرية ..

حتى وضع "خمار الرأس" – ما نعرفه اليوم باسم الحجاب – والذي لا دخل لعمر فيه ! حتى هذا ، كان تعبيراً عن تحييد مفهوم "أداة المتعة" من دور المرأة .. لو لم يكن للمرأة دور في بناء المجتمع يستوجب خروجها لما نزل القرآن بفرض "خمار الرأس" أصلاً .. لكن المرأة يجب أن تخرج ، ويجب أن تساهم في بناء المجتمع والحضارة ، بأدوار مختلفة بحسب كل امرأة ، لكن هذا الخمار سيحيد أنوثتها عن أن تساهم في الترويج لمفهوم أن المرأة خلقت للمتعة .. سيترك لها الحق في إثبات أن لها دور أهم وأعمق بكثير .. بالتأكيد هناك نسوة يسئن لهذا ، كما هناك رجال يسيئون لمناصبهم .

(ولهذا عندما سمع عمر رضي الله عنه امرأة تنشد :

إن النساء رياحين خلقت لكم * وكلكم يشتهي شمّ الرياحين ..

أجابها عمر فوراً رضي الله عنه :

إن النساء شياطين خلقت لنا * نعوذ بالله من شر الشياطين) .

وروي أيضاً أنه مر يوماً بجواري يضربن بالدف ويغنين :

تغنين تغنين فلهو خلقتن

فيهاجهن ضارباً إياهن بالدرة التي لا تفارق يده وهو يقول :

كذبتن كذبتن فأخزى الله شيطاناً رمى هذا إليكن .

كل مواقف عمر التي قد يبدو فيها أنه ضد «المرأة» يمكن فهمها ضمن هذا الإطار . إطار تستخدم فيه المرأة لتروج مفاهيم المتعة والابتذال ... مفاهيم تحول المرأة إلى سلعة لإرضاء الرجل ..

أما فيما عدا ذلك ، فإن عمر نفسه سيقول : إن المرأة ستكون أفضل ما يحظى به رجل مؤمن ، بعد الإيمان !.

(عن يونس بن عبيد عن معاوية عن أبيه أن عمر بن الخطاب قال : لم يعط عبد بعد إيمان بالله شيئاً خيراً من امرأة حسنة الخلق ودود ولود) .

إنها المرة الأخرى هذه المرة ..

رفيقة الدرب في رحلة البناء والتغيير ..

لا شيء بعد الإيمان بالدرب ، يمكن أن يكون كالرفقة الفاعلة الصادقة في هذا الدرب .

* * *

أغلب مواقف عمر مع النساء كانت تتعلق بدعمه للمرأة الأخرى .. المرأة التي تساهم في عملية بناء الحضارة وصنعها ..

فلنأخذ بعضها منها :

(ركب عمر بن الخطاب منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : أيها الناس ما إكثاركم في صدائق النساء ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وإنما الصّدقات فيما بينهم أربع مائة درهم فما دون ذلك ، ولو كان الإكثار في ذلك تقوى عند الله أو كرامة لم تسبقوهم إليها، فلا أعرفن ما زاد رجل في صداق امرأة على أربع مئة درهم ، قال : ثم نزل ، فاعترضته امرأة من قريش فقالت : يا أمير المؤمنين نهيت الناس أن يزيدوا في مهر النساء على أربع مائة درهم ؟ قال : نعم ، قالت : أما سمعت ما أنزل الله في القرآن ؟ قال : وأي ذلك ؟ فقالت : أما سمعت الله يقول : «وَأَتَيْتُمُ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَاراً» الآية ؟ قال فقال : اللهم غفراً ، كل الناس أفقه من عمر ثم رجع فركب المنبر ، فقال : أيها الناس إني كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صدقاتهن على أربع مائة درهم ، فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب .)

(أو قال : أصابت امرأة وأخطأ رجل).

عمر هنا لم ينم على الأمر .. لم يكتف بتأييدها عندما واجهته بالدليل ، بل رجع ليركب المنبر ، ويصحح الأمر ، ويرجعه إلى أن من صححه له كانت امرأة .. علما أنهما هنا ، مع الأدلة الشرعية «امرأة» بمواجهة «رجل» .. وليست امرأة مقابل عمر ، فقد كان ما قاله : أصابت امرأة وأخطأ رجل « وليس كما هو شائع من : «أصابت امرأة وأخطأ رجل» .

كل مواقف عمر الفقهية كانت تسند المرأة وتساهم في مساعدتها على التحول من نموذج المتعة إلى نموذج المرأة الأخرى ، المرأة الفاعلة .. يشعرها بكيانها ضمن كيان اجتماعي مختلف عن ذلك الميان الآخر الذي انسلخ الإسلام عنه ..

(أن عمر بن الخطاب سمع امرأة وهي تقول :

تطاول هذا الليل واسود جانبه وأرقني إذ لا حبيب إلا عبه .

فلولا الذي فوق السماوات عرشه لززع من هذا السرير جوانبه

فأصبح عمر ، فأرسل إليها ، فقال ، أنت القائلة كذا وكذا ؟ قال : نعم ولم ؟ قالت : أجهزت زوجي في هذه البعوث (= الجهاد) ، قال : فسأل عمر حفصة كم تصبر المرأة من زوجها ؟ فقالت : ستة أشهر ، فكان عمر بعد ذلك يقفل بعوثه لسته أشهر .)

(جاءت امرأة إلى عمر فقالت : زوجي يقوم الليل ويصوم النهار ، قال : أفتأمريني أن أمنعه قيام الليل وصيام النهار ؟ فانطلقت ، ثم عاودته بعد ذلك ، فقالت له مثل ذلك ، ورد عليها مثل قوله الأول .

فقال له كعب بن سور : يا أمير المؤمنين ! إن لها حقاً، قال : وما حقها ؟ قال : أحل الله له أربعاً ، فاجعل لها واحدة من الأربع ، لها في كل أربع ليال ليلة .)

لم تعد المرأة هنا أداة متعة تنتظر الرجل ، بل صارت فاعلاً برغبات مشروعة ، تؤثر رغباتها في القرارات العليا لرئيس الدولة بحسب الجيوش أو تسريحها .. لم تعد كائنات هامشياً مكبوتاً لا حق له بالتعبير عن حقوقه الطبيعية .. بل صارت جزءاً فاعلاً بحقوق مساوية بقدر ما تكون طبيعتها .

وعنه أنه قال : (إذا أرادت النساء الخلع فلا تكفروهن!).

كان أصل مبدأ الخلع قد وجد في حادثة ثابتة في السنة النبوية ، لكن عمر قام بالاستناد عليها ليحولها إلى مبدأ فقهي ثابت يتيح للزوجة أن تخرج من زواج لا تشعر أنه يناسبها ..

(عن سعيد بن عبيد بن السباق : أن رجلاً تزوج امرأة على عهد عمر بن الخطاب وشرط لها أن لا يخرجها (أي أن يبقيها وحدها) فوضع عمر بن الخطاب عنه الشرط وقال المرأة مع زوجها).

بل إنه هو ، المعروف بشدته وقوته قد قال ..

(وقال عمر لرجل هم بطلاق امرأته ، لم تطلقها ؟ قال : لا أحبها ، فقال عمر : أو كل البيوت بنيت على الحب ؟ فأين الرعاية والتدبّر !).

كل هذا ، كل هذا الدعم والحماية ، في مختلف المجالات .. في التفاصيل الدقيقة ..

ألا يستحق عمر لقب نصير المرأة «الأخرى» إذا ؟!..

لا .. الألقاب غير مهمة فعمر لا يبحث عن انتصار انتخابي ..

وفهم عمر ، الذي كان فيه بالفعل عدواً لنموذج معين من المرأة ، ونصيراً لنموذج آخر هذا الفهم ، لم يكن عمرياً خالصاً .. بل كان مستنداً على القرآن ، وعلى السنة ..

كل ما في الأمر أنه فهمهما على النحو الصحيح .

* * *

لا يمنع ذلك من أن عمر كان شديد الغيرة على نسائه !.

لكنها غيرة محكومة بينه وبينهن بالنص الشرعي ..

(عن ابن عمر قال كانت امرأة لعمر تشهد صلاة الصبح والعشاء في الجماعة في المسجد ، فقيل لها : لم تخرجين وقد تعلمين أن عمر يكره ذلك ويغار ؟ ، قالت وما يمنعه أن ينهاني ؟ قال : يمنعه قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا تمنعوا إماء الله مساجد الله).

لا يمنعه ..

ببساطة : لا يمكنه ذلك !..

* * *

وهل من فخر أكبر ، من أن يرتبط اسمه رضي الله عنه بالنهي عن زواج المتعة ؟!

زواج المتعة هو أحد أنواع النكاح في الجاهلية ولأن الجواب واضح من عنوانه فإنه نكاح لا يقوم إلا على المتعة ، المرأة فيه هي أداة المتعة الأساسية ، دون أية حقوق ، دون أية مقومات لعلاقة حقيقية غير المتعة العابرة ، غير الزنا الذي قبله مجتمع الجاهلية بمجرد أن يسميه باسم آخر ..

ولأن الإسلام قام على التدرج ، ولأن المسلمين كانوا في وضع لا يفكرون في هذا النكاح ، فإن تحريمه لم يحدث إلا عند غزوة خيبر .. ولأن الأمر ظل نادراً فإن من يعلم بأمر التحريم بقي

محدوداً بمن شهد الواقعة ، لم يكن هناك ضرورة لأن يعلم ذلك بالنسبة لمن لا يفكر فيه .. علماً أن شروط الزواج الشرعي تتعارض منطقياً مع أن ذلك يكون هناك نكاح كهذا .

ولهذا تصدى عمر لحرام حرّمه الرسول وأحيا مجدداً نهيه .

يتهمونه اليوم بها .

ويكفيه فخراً لو كانت التهمة حقيقية ..

* * *

كان من نتائج الدعم للمرأة الأخرى ، أن عمر بن الخطاب قد ولى نموذجاً من هذه المرأة الفاعلة القوية ، ولاها منصباً يمكن أن يكون بمثابة منصب الوزير في مسمياتنا اليوم ..

إنها الشفاء .. أول وزيرة في الإسلام ..

ولاها عمر !

(الشفاء بنت عبدالله بن عبد شمس بن خلف بن شداد بن عبدالله بن قرط رزاح بن عدي بن كعب القرشية العدوية ، أسلمت الشفاء قبل الهجرة وهي من المهاجرات الأول ، وبايعت النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت من عقلاء النساء وفضلائهن ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها ، وقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : علمي حفصة رقية النملة كما علمتها الكتابة . أقطعها رسول الله صلى الله عليه وسلم دارها عند الحكاكين بالمدينة ، فنزلتها مع ابنها سليمان ، وكان عمر يقدمها في الرأي ، ويرعاها ، ويفضلها ، وربما ولاها أمر السوق).

كانت وزيرة اقتصاد !.

ثم يأتي من يقول إنه كان عدواً للمرأة .

* * *

لكن هم عمر الأكبر لم يكن « المرأة الأخرى »

بل كان يريد ، كما كان الإسلام يريد ، الإنسان الآخر ..

ففضايا المرأة لا يمكن حقاً أن تفصل عن فضايا الرجل ..

في النهاية القضية هي قضية الإنسان الآخر .. بمعزل عن كونه ذكراً أو أنثى ..

الإنسان الآخر الذي يكون حقاً ما خلقه الله لأجل أن يكونه ..

فمن نحن حقاً ؟

بمعزل عما ندعيه ؟

هل نحن من الفئة التي نصرها الإسلام ودعّمها وسهل ولادتها ؟! ..

أم إننا لا نزال جاهليين ، تحت قشرة معاصرة نتشدد بحقوق المرأة وحقوق الإنسان ، ونهدهرها لنطبق جاهلية الحضارة المعاصرة ..

أو حتى تحت قشرة إسلامية ، بينما الجوهر جاهلي ..

السؤال صعب .. ولكن الإجابة عنه ضرورية .

الصلاة يا أمير المؤمنين !

(عن عمر قال : إن الدين ليس بالطنطنة من آخر الليل ، ولكن الدين الورع!).

من يقول ذلك هو عمر .

لم يكن يفوت ليلة واحده دون أن يقومها .

قيامه لليل كان مليئاً بالأسرار ، حتى إن عثمان بن أبي العاص ، قد تزوج إحدى زوجاته بعد وفاته ، لا لشيء ، إلا فقط ليعرف «السر» في ليل عمر .

(قال الحسين تزوج عثمان بن أبي العاص امرأة من نساء عمر بن الخطاب ، فقال : والله ما نكحتها رغبة في مال ولا ولد ، ولكني أحببت أن تخبرني عن ليل عمر .. فسألته ، فقال : كيف كانت صلاة عمر بالليل ؟ قالت : كان يصلي صلاة العشاء ثم يأمرنا أن نضع رأسه توراً (وعاء) فيه ماء فيتعار (فيستيقظ) من الليل فيضع يده في الماء فيمسح وجهه ويديه ثم يذكر الله عز وجل حتى يغفي ثم يتعار (فيستيقظ) حتى تأتي الساعة التي يقوم فيها)...

(كان عمر بن الخطاب يصلي من الليل ما شاء الله حتى إذا كان نصف الليل أيقظ أهله إلى الصلاة ، ثم يقول لهم : الصلاة الصلاة ، ويتلوا هذه الآية : «وأمر أهلك بالصلاة وأصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى»

«يصلي ما شاء الله» .. مفتوحة ..

تركها لمشئئة الله ..

ثم عند منتصف الليل يوقظ أهله .. «الصلاة .. الصلاة»...

ثم يتلو من سورة طه

سورة طه! ..

إنها تلك السورة التي أسلم عندما اصطدم بها ، السورة التي اصدمت به فكان مثل حجر ينير بالاحتكاك ، أنارت له الدرب .. قبل أكثر من عقدين ..

لا يزال يستلهمها .. لا يزال يقتبس منها النور في الليل .. فيجمع أهله عليها ..

في كبد الليل ، لم يكن يفوت تلك الصلاة ..

صلاة الليل !..

هكذا هو عمر والصلاة ، وهذا هو عمر وقيام الليل .

فما الذي جعله يقول «ليس الدين بالطنطنة من آخر الليل؟»

أليس هذا ما يقوله - غالباً - للمفردون ؟

لكن عمر على ما يبدو قد رأى من بعض من يقومون بالصلاة وبالشعائر ما لم يجعله يقلل من شأنها ومن شأن الالتزام بها ، ولكن جعلته ينظر إليها من منظور أوسع ، منظور فاعليتها وتأثيرها ، منظور ، صدقها ومصداقيتها ، منظور أنها تمتد لتكون موجودة وفاعلة طيلة الوقت ، وليس فقط في وقت الصلاة .. بل في الوقت بين الأوقات ..

صار ينتبه ، أن بعض من يقوم للصلاة ، لا يجعلها مستمرة في فاعليتها في أداء مهمتها خارج أوقات الصلاة .

ماهي وظيفتها !

هل صار للصلاة وظيفة ؟

نعم ..

الصلاة بالنص القرآني ، تنهى عن الفحشاء والمنكر ..

وقد تعودنا أن نعد أن الفحشاء والمنكر ينتميان لمنطقة متعلقة بالزنا و مقترباته ..

ولكن من قال إن الجيل الأول وعلى رأسهم عمر ، قد فهم هذا الفهم الذي يقصر الفحشاء والمنكر بهذه الزاوية فقط ..

الفحش هو كل ما قبح من القول والفعل ، والمنكر هو كل ما قبحه الشرع وحرمه .. وعلى هذا ، فما تنهى الصلاة عنه من الفحشاء والمنكر هو أوسع بكثير مما نعتقه تقليدياً .

عن أبي سعيد مولى أبي أسيد قال : كان عمر بن الخطاب يعس المسجد بعد العشاء ، فلا يرى فيه أحداً إلا أخرجه إلا رجلاً قائماً يصلي .

انتهت الصلاة !..

فما جلوسكم في المسجد ؟!

الصلاة تشحنك بطاقة على العمل ، تصوب بوصلتك واتجاهك على العمل ، إن أدبتها وتصورت أنك قد فعلت ما يجب ، قد «عملت» ، وذهبت لتسترخي وقد أدبت قسطك للعلي ! فقد فوت أهم ما في الصلاة ، ربما لم تفوت وقتها وصلاتها جماعة ..

لكنك «فوت» مقصدها .. أن تمدك بهذه القدرة والطاقة على العمل ، أن تمدك بضمير يحاسبك في كل عمل تعمله ..

فإذا كنت لا تعمل شيئاً ، فماذا فعلت لك صلاتك ؟!

ولو كنت قد طنطنت آخر الليل .. أي صليت آخره !..

المهم أن يؤدي ذلك إلى الورع ..

* * *

فلنتذكر أن عمر استخدم كلمة الورع عندما وصف الدين ، بدلاً عن الطنطنة في آخر الليل ..

فما هو الورع ؟

الورع لغة : هو التحرج ، وهو في الأصل الكف عن المحارم والتحرج منه ، وتورع من كذا ، ثم استعير للكف عن المباح والحلال ..

فلننتبه هنا أنه عند عمر ليس «الكف» عن المباح والحرام ، عبر الكف عن العمل والامتناع عنه «تجنباً» للوقوع في الخطأ ..

على العكس !

بل هو النجاح في امتحان العمل ، عبر الورع فيه ..!

كيف ميزنا أن هذا هو الورع عند عمر ؟

(عن خرشة بن الحر قال : شهد رجل عند عمر بن الخطاب شهادة فقال له : لست أعرفك ولا يضرك أن لا أعرفك ، أنت بمن يعرفك ، فقال رجل من القوم : أنا أعرفه ، قال : بأي شيء تعرفه ؟ قال : بالعدالة والفضل ، قال : فهو جارك الأدنى الذي تعرف ليله ونهاره ومدخله ومخرجه ؟ قال : لا ، قال : فعاملك بالدينار والدرهم اللذان بهما يستدل على الورع ؟ قال : لا ، قال : فرفيقك في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق ؟ قال : لا ، قال : لست تعرفه ، ثم قال للرجل : أنت بمن يعرفك .)

الدرهم والدينار إذاً ...

العمل إذاً : العمل والمعاملة ، بكل آفاق الكلمة ، بكل مدياتها الواسعة ..

كل عمل منتج ، في أي مجال سيتطلب تعاملاً بالدرهم والدينار ، وهنا هو المحك الحقيقي ..

هنا يبدو الورع ..

هنا ستبدو للصلاة "فاعليتها" الحقيقية ..

هل هي مجرد طنطنة ؟ مجرد هينات وحركات تؤدي وانتهى الأمر أم أنها تتجاوز ذلك لتؤثر بالإيجاب على معايير جودة أدائك ..؟

هل ستقف صامداً أمام الدرهم والدينار والدولار ؟!..

أم أنك ستبحث عن عذر هنا وعذر هناك لتبرر بهما تحايلك ..

صمودك بلا صلاة ، لا معنى له بحسب المنظومة الإسلامية .. وصمودك أمامهما مع الصلاة ، سيعني أن الصلاة قد حققت - على الأقل - واحداً من وظائفها .

* * *

أعمق وأروع ما يمكن أن يصلنا عن فهم عمر للصلاة ومعناها عنده هو أنه أمر لاحقاً بعثت كل من يصلي من السبي !

(أخبرني نافع عن عبد الله أن عمر بن الخطاب أعتق كل من صلى من سبي العرب ، فبت عتقهم ، وشرط عليهم : أنكم تخدمون الخليفة بعدي ثلاث سنوات ، وشرط لهم : أنه يصحبكم بمثل ما كنتم أصحابكم به .)

(إن عمر بن الخطاب أعتق في وصيته كل من صلى ركعتين من رقيق بيت المال)

الصلاة ، كما فهمها عمر ، كانت باب هؤلاء للحرية ، للعتق ..

أي معنى عظيم !..

أليست هذه هي الصلاة حقاً ؟

أليست هي بابنا جميعاً إلى الحرية الحقيقية؟! ألسنا جميعاً عبيداً لشهواتنا ولعاداتنا ولأنماط حياتنا وللرتابة فيها إلى أن نصلي ، فتكون الصلاة بابنا إلى حريتنا الحقيقية التي هي في اعتقادنا من كل شيء يشغلنا عن تمام عبوديتنا له وحده؟! تخيل أنك أسرت وصرت سبياً بحسب قواعد الحرب المعمول بها في ذلك الوقت ، والتي خفف الإسلام أصلاً منها ، لكن تخيل أن يقال لك أنك ستعتق فقط لو صليت .. ربما ستصلي أولاً فقط لغرض أن تعتق .. لكن ستتسلل الصلاة إليك شيئاً فشيئاً.. ستصير جزءاً منك .. ستتغير أنت .. حتى لو كانت نيتك أولاً ليست خالصة .. ستتقيها الصلاة .. وستبقى في ذهنك دوماً أنها كانت مفتاحك إلى الحرية .

* * *

بهذا الفهم فإن عمر حياته كلها صلاة ! تصبح الأوقات بين الأوقات الخمسة كلها صلاة بأشكال مختلفة ومتنوعة ، لكنها كلها تستحضر الأوقات الخمسة ، وتستمد منها طاقتها .. (إن أبا موسى أتى عمر بن الخطاب بعد العشاء قال: فقال له عمر بن الخطاب : ما جاء بك؟ قال: جئت أتحدث إليك. قال : هذه الساعة؟ قال : أنه فقه فجلس عمر فتحدثا ليلاً طويلاً حسبته قال: ثم إن أبا موسى قال : الصلاة يا أمير المؤمنين .. قال: إنا في صلاة!). الصلاة يا أمير المؤمنين!..(وكان يقصد نافلة فقد جاءه بعد العشاء) ولكن عمر رد بحسم : أنا في صلاة!..

هذا الحسم ، هو الذي يلغي الفهم الذي يفصل الدين عن الدنيا ، والشعائر عن الحياة ، هذه العلمانية الخفية الموجودة عند بعض المتدينين .. التي تفصل بين دينهم وحياتهم ، فتكون شكلاً ممهداً لفصل الدين عن الحكم .. عمر لم يرَ فصلاً حتى بين الصلاة والحياة عندما تكون تطبيقاً لأوامره عز وجل ..

كان يرى الحياة صلاة مستمرة ..

وكان يرى الصلاة حياة مستمرة ..

الصلاة في المسجد ..

والصلاة خارج المسجد ..

كانت صلاته حياة ..

وكانت حياته صلاة ..

بطريقة ما ، لم يفرق ابن الخطاب بينهما ..

وجد في الصلاة حياته ، ووجد في الحياة صلاته ، لم يكن ممكناً لمن فهم فهمه أن يفصل بين الاثنين ..

كانت الصلاة هي ما تمنح الطاقة لحياته ، ترفع معايير جودتها ..

وكانت حياته .. مصداقاً لذلك .

* * *

موقف واحد ، في آخر يوم في حياته رضي الله عنه قد يلخص العلاقة بين الصلاة والحياة عنده أعمق تلخيص ..

عندما طعن تلك الطعنات الحاقدة ، أغشي عليه ، وأراد من حوله أن يوقظوه من تلك الإغماء ، فما فلتحوا ..

ثم قال لهم رجل : إنكم لن تقرعوه بشيء إلا الصلاة ، أي لن تتمكنوا من إيقاظه إلا بأن تهمسوا له بالصلاة ..

فقالوا : الصلاة يا أمير المؤمنين ..

همسوا في أذنه ..

الصلاة يا أمير المؤمنين ..

فانتفض ..

كلمة الصلاة ، كانت مثل كلمة السر التي جعلته يستجمع كل ذرات الحياة في جسده النازف دماً ..

الصلاة يا أمير المؤمنين ..

وقام ليصلي !..

هل من موقف أعمق وأدل على الطاقة التي كانت تمدده الصلاة بها ؟..

هل من موقف أعمق يدل على أن الصلاة كانت مصدراً لا ينضب لكل تلك الحيوية التي جعلت عمر يفعل كل ما فعله ، ينجز كل ما أنجزه في حياته ؟

ونحن !

لو أننا يوماً تعرضنا لحادث ما ..

ورحنا في غيبوبة ..

فأي شيء يمكن أن يجعلنا نصحو منها ؟

أموالنا ؟..

أولادنا ؟..

مهنتنا ونجاحنا الوظيفي ؟

أسرار لنا ؟..

أم أننا لم نجد في حياتنا ما يستحق الحياة ؟!..

نحن نعرف الجواب عن هذا ..

وحياتنا شاهدة عليه ..

وعلينا ..

كما شهدت حياة عمر عليه ..
الصلاة يا أمير المؤمنين ..
وانتفض ! .

آمنت ، فعدلت ، فسهرت !
إذا ذكر عمر ، ذكر العدل !
هذه هي الصفة الأساسية التي عرفت عن عمر ، وارتبطت به في ذاكرة الأجيال عبر
العصور ..
مواقف عمر العادلة التي تملأ الكتب والمجلدات ، كما ذاكرتنا ووعينا التي امتدت طيلة فترة
خلافته ، هي من جعلته يدخل التاريخ من هذا الباب ..
كل أبواب التاريخ كانت مفتوحة له ..
ربما ليس التاريخ ..
لكن الشعوب المحتاجة إلى العدل ، المتعطشة إلى نظم مختلفة وحكام مغايرين ، أخذت عمر من
يده وأدخلته ذاكرتها من باب العدل تحديداً ..
ربما لأن القادة كثر ..
أو لأن ما أنجزه عمر في مواقفه الأخرى كان أصعب على الفهم بالنسبة لعموم الجماهير ..
أما العدل ، فهو ما تحتاجه في حياتها اليومية ، ولذلك كان لا بد أن تذكر عمر به !

* * *

(كان عمر إذا نهى الناس عن شيء جمع أهله بيته فقال إني نهيت الناس كذا وكذا أو أن الناس
لينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم وأيم الله لا أجد أحداً منكم فعله إلا أضعفت له العقوبة
ضعفين) .
هكذا إذاً ...!

أول ما ينهى عن شيء يجمعهم .. أهله وكل من يمكن أن يحسب عليه !..
ليس من باب أنهم قدوة !..
بل من باب أن الناس تراقبهم ..
وهو ، سيضاعف لهم العقوبة التي أقرها على الناس إن هم أتوا ما نهى عنه ..
الضعف !

* * *

حسناً ، قد يقولها بعض القادة ..

لكن الفرق أن عمر يفعلها ..!

(كتب إلى عمرو بن العاص : من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى العاصي بن العاص : عجبت لك يا بن العاص ولجرائتك علي ، وخلاف عهدي . أما إنني قد خالفت فيك أصحاب بدر ممن هو خير منك ، واخترتك لجدالك عني ، وإنفاذ عهدي ، فأراك تلوثت بما قد تلوثت ، فما أراني إلا عازلك فمسيء عزلك ، تضرب عبدالرحمن في بيتك ، وقد عرفت أن هذا يخالفني ؟ إنما عبدالرحمن رجل من رعيته ، تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين . ولكن قلت : هو ولد أمير المؤمنين وقد عرفت أن لا هودة لأحد من الناس عندي في حق يجب لله عليه ، فإذا جاءك كتابي هذا فابعث به في عبادة على قتب حتى يعرف سوء ما صنع).

قال لهم : إنه سيعاقبهم الضعف ..

وعبدالرحمن كان يعلم ذلك ، وكان يمكن أن يتجنب العقوبة بسهولة لأن الله ستره وبقي الأمر بينه وبين ربه ..

لكن التربية التي غرسها فيه عمر ، لم تجعل ذلك ممكناً ..

فذهب إلى عمرو بن العاص طلباً أن يطهره ..

فجلده عمرو ، كما هو المعمول به ..

لكن عمر لم يمرر المسألة بعقوبة لم يشرف بنفسه عليها ، ولم تكن على مستوى الوعد بالمضاعفة ، وكان فيها المجاملة بالحلاقة سراً ، وبالجلد سراً ..

لذا ها هو يستقدمه إلى المدينة ، ويقوم عليه الحد علناً ، على رؤوس الأشهاد ..

علينا أن نبحث في التاريخ ، عن حادثة مماثلة ..

عن حاكم قام بمعاقبة ابنه أصلاً !

وليس بمعاقبته مرتين !

شخصياً بحثت ولم أجد .. إلا واحداً فقط ..

عمر بن الخطاب .

* * *

(إن عمر بن الخطاب اختصم إليه مسلم ويهودي ، فرأى عمر أن الحق لليهودي ، ف قضى له ، فقال له اليهودي : والله لقد قضيت بالحق . فضربه عمر بن الخطاب بالدرّة ، ثم قال : وما يدريك ؟).

* * *

بالنسبة لعمر ، كان العدل تحصيلاً حاصلاً ... لم يكن عمداً متعمداً ، كان جزءاً من التزامه بما آمن به ، جزءاً من بديهيات إسلامه ، لم يكن متكلفاً فيه ، بل كان نابغاً من حقائق الإيمان ..
العدل بالنسبة له كان تطبيق القرآن والسنة .
نقطة . انتهى .

في كل ما كان يفعله ، وكل ما أخله التاريخ ، كان هناك دوما «الإيمان» بالقرآن والسنة دافعاً ، ضابطاً ، منظماً لهذا العدل العمري ..

في كل موقف أو قصة من قصص العدل التي أدخلته ذاكرة الناس ، ستجد نصاً قرآنياً ، أو تعليمياً نبوياً ، نقله عمر إلى أرض الواقع وطبقه فكان نموذجاً يحتذى ..

قال عليه الصلاة والسلام : لو أن فاطمة سرقت ، لقطعت يدها .. ولو أنها فعلت ، لفعل .. لكنها لم تفعل !

صحيح أن عمر أن يواجه مستجدات جديدة ، إلا أنه كان يواجهها بعقل يعمل «بنظام تشغيل قرآني» كما سبق وقلنا .. وهذا يجعل النصوص حاضرة معه في كل موقف ..

عدله كان النتيجة لهذا .. نتيجة حرصه على تطبيق القرآن والسنة دون انتقائية لنص معين ، حرصه على استدعاء القرآن في كل موقف ، وتساوي الجميع ، الجميع حرفياً ، أمام ما يطبق من قوانين ..

كان مفهوم محاسبة الذات المستمد من القرآن والسنة ، قد جعل من عمر يتحول شخصياً إلى ديوان محاسبة متحرك .. حاسب نفسه كما لو كان يعرض كل يوم إلى العرض الأكبر ..

(يروى عن عمر بن الخطاب قال حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وتزينوا للعرض الأكبر ، وإنما يخف الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا).

وحول ديوان المحاسبة هذا إلى ديوان عام .. صار يعلم الجميع كيف يفعلون ذلك .. كانت فترة خلافة عمر بمثابة دورة تدريبية للمجتمع على كيفية محاسبة النفس ..

تحول الشعور بالمسؤولية إلى ما يشبه الوسواس ، الهاجس المورق المثقل لضمير عمر .. إنه الوسواس الذي جعلنا نصل إلى أقوال مذهلة كهذه :

(حدثني داود بن علي ، قال : عمر بن الخطاب : لو ماتت شاة على شط الفرات ضائعة لظننت أن الله تعالى سألني عنها يوم القيامة).

شاة ضائعة على شط الفرات يا أمير المؤمنين .. ضميرك مثقل بموت شاة ضائعة ، افتراضية ، على شط الفرات !

(عن حنظلة بن أبيه عن عمر بن الخطاب قال : ليس رجل أمينا على نفسه إذا أبعثه ، أو أوثقته ، أو ضربته).

لقد حرص على توفير الحرية والكرامة والشعب للجميع ..

ومن ثم ، بعدها ، صاروا مؤهلين للمحاسبة ..

هذا هو عدل الإسلام .. بحسب رؤية عمر .

* * *

عمر باختصار هو من بنى «المؤسسة القضائية» في الدولة الإسلامية ..

كان هناك «قضاة» قبله بالتأكيد ، ومنذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكانت هناك قواعد واضحة وضعها عليه الصلاة والسلام كما في حديث معاذ بن جبل ..

لكن القضاء كمؤسسة بأذرع مختلفة وممتدة إلى مختلف الأمصار لم يحدث إلا في عهد عمر ..

صار لكل ولاية قاض مستقل ، يعين من قبل الخليفة مباشرة ، أو يعينه الوالي بعد أخذ موافقه الخليفة ، ويمكن أن يكون الوالي هو القاضي نفسه في غير الولايات الكبيرة .. كما وضع شروطاً لشخص القاضي وطبيعته ، من حيث علمه بالأحكام وترفعه عما في أيدي الناس ، وقوة شخصيته .. كما أشرت فيما يلي :

(لا ينبغي أن يلي هذا الأمر - يعني أمر الناس - إلا رجل في أربع خلال : اللين في غير ضعف ، والشدة في غير عنف ، والإمساك في غير بخل ، والسماحة في غير سرف ، فإن سقطت واحدة منهن فسدت الثلاث).

* * *

لم يكن القضاء سارياً على أولاد عمر وأهله والناس فحسب ، بل كان سارياً عليه أيضاً حتى لو أدائه ، حتى لو كان يعلم في قرارة نفسه أنه لم يخطئ ..

(عن الشعبي قال : ساء عمر بن الخطاب بفرس فركبه ليشوره فعطب ، فقال للرجل : خذ فرسك ، فقال الرجل : لا ، فقال : اجعل بيني وبينك حكماً ، قال الرجل : شريح ، فتحاكما إليه ، فقال شريح : يا أمير المؤمنين خذ ما ابتعت أو رد كما أخذت ، قال عمر : وهل القضاء إلا هكذا سر إلى الكوفة ، فبعثه إليها قاضياً عليها ، وإنه لأول يوم عرفه فيه).

أول يوم تعرف فيه على شريح كان يوم أدائه !
وكافأه لأنه أدائه في الحكم ، بأن عينة قاضياً على واحد من أكبر الأمصار وقتها على الكوفة !.

* * *

لا يكتفي عمر بالنصائح ويترك التطبيق لضمائر عماله ..

بل يهيمن عليهم برقباته التي تجعلهم أكثر حزماً في الالتزام بوصاياه ..

(وكان رضي الله عنه يأمر عماله أن يوافوه بالمواسم ، فإذا اجتمعوا قال : أيها الناس إنني لم أبعث عمالي عليكم ليصيبوا من أبشاركم ولا من أموالكم ، إنما بعثتهم ليحجزوا بينكم ، وليقسموا فينكم بينكم ، فمن فعل به غير ذلك فليقم ، فما قام أحد إلا رجلاً واحداً قام فقال : يا أمير المؤمنين إن عاملك ضربني مائة سوط . قال : فيم ضربته ؟ قم فاقتص منه . فقام عمرو بن العاص ، فقال : يا أمير المؤمنين إنك إن فعلت هذا يكثر عليك ويكون سنة يأخذ بها من بعدك . فقال : أنا لا أقيد ، وقد رأيت رسول الله يقيد من نفسه قال : فدعنا فلنرضه ، قال : دونكم فأرضوه . فاقتدى منه بمائتي دينار كل سوط بدينارين ولو لم يرضوه لأقاده رضي الله عنه).

السلطة التنفيذية هنا ، سلطة على السلطة القضائية فعلاً ..

لكن ليس بالمعنى السلبي الذي نفهمه اليوم ..

إنها بمعنى إيجابي جداً ، من أجل تسهيل الرقابة عليها والتأكد من نزاهتها ..

إنها السلطة في خدمة الشعب ..

وكان من تمام العدل العمري أنه لا يتردد في إيقاف العقوبة أو تحجيمها أن تبين له وجود «شبهة» أو خطأ في التحقيق أو في ملابسات القضية في العموم .

عمر هو صاحب القول الأشهر الذي تحول ليكون قاعدة فقهية ، في درء الحدود .

(لئن أعطل الحدود بالشبهات أحب إلي من أن أقيمها بالشبهات).

* * *

شعور عمر بالمسؤولية تجاه كل ما يحدث ، والذي دفعه إلى جعل العدل مؤسسة قضائية وليس رأياً شخصياً .. وهذا الشعور ، كان يقوده أحياناً لمواقف عجيبة في مدى شعورها بالمسؤولية تجاه كل ما وصله ولم يصله ..

بل حتى ما لم يحدث في عهده ..

مر علينا سابقاً موقفه عندما قتلت شابة شيخاً كبيراً زوجها لها دون رضاها .. فاتهم أهلها بالظلم وأسقط عنها الحد ..

هذا كان قد وصله ..

لكنه أحياناً ، كان يستشعر الظلم من قصص معروفة حصلت قبل عهده ..

فيقول «لو أدركت كذا .. لفعلت كذا» .. في إشارة لموقف عادل يجب أن يكون فيما لو تكررت القصة ..

عن أي شيء نتحدث هنا ..

عن واحدة من أشهر قصص الحب العذري في الجاهلية ..

قصة عفراء وعروة ..

(عفراء وعروة كانا من قبيلة عذرة ، وكان عروة ابنة عم لعفراء ، لكنه كان فقيراً ، وكانت عفراء جميلة ، ومعروفة بجمالها بين القبائل ، وكان أهلها فقراء أيضاً مثل عروة أو أفضل منه قليلاً .. وكانت أمها ترى أن جمال عفراء يمكن أن يجلب لها زوجاً ثرياً ..

وهكذا كان ..

فقد خطبها ثري من بلقاء الشام ، وتزوجها أثناء سفر عروة بحثاً عن رزق يمكن أن يؤمن له مهر عفراء ..

أوهم الجميع عروة أن عفراء قد توفيت ليتخلصوا من لومه لهم على تزويجها لسواه ... ودلوه على قبر وهمي لها فظل يرثيها بقصائد سارت باسمها بين القبائل ..

ثم علم عروة بما كان ، فزاد تأثره ، وانتهى بأن فقد عقله ..

لم تكن القصة قديمة جداً ، فقد عاش عروة حتى عهد عثمان ، لكنه كان قد كبر وفقد ، أما عمر ، فقد قال قولاً بسيطاً عميقاً يستحق أن نذرف له الدموع ..

قال :

«لو أدركت عفراء وعروة ، لجمعت بينهما» ..

وصلت إلى هنا يا أمير المؤمنين ..

إلى قلوب العشاق الذين فرقتهم الحاجة والطمع .. وصلت إلى قلب شاب وشابة ، يحب كل منهما الآخر ، ويريدان الارتباط ، لكن يصطدمان بصخرة من صخور الحياة ..

نعم .. إلى هنا .. هكذا فهم عمر منصبه .. ألا يسمح لأي ظلم أن يقع .. حتى لو كان ظمماً من هذا النوع ..

حتى لو لم يصل إلى القضاء .
لو أدركت عفراء وعروة لجمعت بينهما
آه يا أمير المؤمنين ..
لو تعلم ..
كم من عفراء وعروة ، زلا على الطريق ، وسارا في المعصية ، لأنهما لم يجدا من يجمع بينهما
بالحلال .. لأنهما لم يكونا في عهد «سلطة» تعي مسؤوليتها تجاه كل شيء ..
حتى جمع القلوب ..
آه يا أمير المؤمنين ..
لو تعلم ..
ليس عروة فقط فقد عقله ..
تكاد تفقده جميعاً ، منذ أن ابتعدنا (قسراً وطوعاً) عن نموذجك ..
عن كل ما مثلته وجسدته في حياتك .

* * *

قصة لا بد أن تذكر كلما ذكر عدل عمر .. سارت كما تسير الأمثال ..
(لما جيء بالهرمزان ملك خوزستان أسيراً إلي عمر لم يزل الموكل به يقتفي أثر عمر حتى
عثر عليه بالمسجد نائماً متوسداً درته ، فلما رآه الهرمزان قال : هذا والله الملك الهني عدلت
فأمنت فنمت ، والله إني خدمت أربعة من ملوكنا الأكاسرة أصحاب التيجان فما هبت أحداً منهم
هيبتي لصاحب هذه الدرة).
عدلت فأمنت فنمت ..
حسناً ..
المثل صحيح ..
لكن ما شاهده الهرمزان هو جزء بسيط من الحقيقة .. لقد شاهده نائماً في المسجد ، وربما كان
مستيقظاً قبلها بدقائق .. ربما كانت قيلولة لم تستمر سوى دقائق .. بل لعله كان قد نام متعمداً في
المسجد لكي يسهل إيقاظه من قبل كل من يحتاجه ..
كان عمر قليل النوم ، وقد سبق ومر بنا قوله : «إن أنا نمت في النهار ضيعت الرعية وإن أنا
نمت في الليل ضيعت نفسي ، فكيف انام ؟» ..
.... «ولم ينم «أنا» بالتأكيد ، بل كان مرهقا لا أكثر ..
كيف كان له أن يفهم أن المتتالية الحقيقية ليست : «عدلت ، فأمنت فنمت» كما توهم ، فالعدل لم
يكن هو البداية ..
بل كانت «أمنت ، فعدلت ، فسهرت» .. ولا يمنع ذلك أن تغفو قليلاً ..
العدل نابغ من الإيمان بالله ، الإيمان ، بكل ما جاء به كتاب الله وسنة رسوله ..
العدل هو تطبيقها ..

أمنت ، فعدلت ..
فالعديل من مستلزمات إيمانك ..
فسهرت ..
لأن الأمر شاق .. يتطلب كل دقيقة من وقتك .. يتطلب أن تصفي نيتك وعزمك وتشعر بثقل
الأمر في كل ما أنت مسؤول عنه ..
ولأنك سهرت ، فستكون مرهقاً جداً ، وربما تأخذ «قيلولة» لدقائق ..
هذا هو ..
أمنت .. فعدلت .. فسهرت .
بالمناسبة ..
كان الهرمزان يقصد بالأمن أن عمرًا كان نائماً دون حراسة ،
هذا بالذات ما جعل مواطناً آخر من مواطني الهرمزان ، يقتل عمر لاحقاً ..
وتلك قصة أخرى .

عمر المدير : أن تعد للأمر أقرانها ..
النجاح في صنع الحضارة ، لا يمكن أن يتحقق دون أن يكون هناك تفوق وتميز في مجالات
الإدارة !!
وكان عمر مديراً عبقرياً لعملية التحول الحضاري ، التي أسهم وشارك أصلاً في انطلاقتها ..
كان عمر ، مثل داود ، ذي أيدي كثيرة ..
يد في الفتح ، ويد في العدل ، ويد في الفقه ، ويد في بناء مجتمع جديد ، ويد في تقسيم الغنائم ...
إلخ .
لولا الإدارة ، لكان من الممكن لهذه الأيدي أن يصطدم بعضها ببعض .. أن تقيد بالفوضى .. أن
تكف عن النتائج ..
لولا الإدارة ، إدارة عمر لما كان من الممكن استثمار كل ما قدمه عمر ، وكل ما غرسه الإسلام
فيه ..
ما فعله عمر هو أنه «أدار» المرور ..
أدار المرحلة ، فجعل منها باباً لفتح حضاري كبير ..
هل كان لديه شهادة إم بي أي MBA ؟ (ماجستير في إدارة الأعمال)
لا ..
لكنه فهم الشهادتين .. حق فهمها ..
وكان ذلك أكبر من أية شهادة في الإدارة ، من أكبر جامعات العالم ..
لو فهمنا الشهادتين حقاً .. لكان ذلك أهم وأكثر فاعلية من أية شهادة جامعية ..

لو فهمنا الشهادتين حقاً ، لكانت جامعتنا نحن ، هي التي تمنح أرقى الشهادات في العالم ..
أعني شهادتي أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله !

* * *

عبقريّة عمر بن الخطاب الإداريّة ، تميزت بالمرونة في الاقتباس من النظم والأساليب التي
تتبعها المدنّيات الأخرى ، ولكن بتطويعها وتسخيرها تماماً لصالح القيم الإسلاميّة ، وصبّها
داخل المنظومة الحضاريّة الإسلاميّة ..

* * *

عبقريّة عمر في الإدارة ، انتبهت لذلك ، فلم تخلط الأمور ..
لا معنى في رفض الوسائل لمجرد أنها كانت نتاجاً لأمة أخرى ..
ولكن ، يجب ألا نقبلها إلا من خلال كونها وسائل فقط ، بعد عزلها عن قيمها ، وتسخيرها لتكون
في خدمة القيم الإسلاميّة ..

* * *

تركت لنا الآثار عن عمر بن الخطاب موقفاً اكتشفت من خلاله أنه سيواجه عنق زجاجة ، وأن
عليه أن يتخذ إجراءات إداريّة حاسمة تخرج الأمة من عنق الزجاجة ..
(قال سمعت أبا هريرة يقول : قدمت على عمر بن الخطاب من عند أبي موسى الأشعري
بثمانمائة ألف درهم ..!)

قلت : بل قدمت بثمانمائة ألف درهم .

قال : ألم أقل لك إنك أحمق -!- إنما قدمت بثمانين ألف درهم ..! فكم ثمانمائة ألف ؟
فعددت مائة ألف حتى عددت ثمانمائة ألف .

قال أطيّب ويحك ؟ (=أحلال ؟)

قلت : نعم .

فبات عمر ليلته أرقاً حتى إذا نودي بصلاة الصبح قالت له امرأته : يا أمير المؤمنين ما نمت
الليلة ، قال : كيف ينام عمر بن الخطاب وقد جاء الناس ما لم يكن يأتيهم مثله منذ كان الإسلام
؟ .. مما يؤمن عمر لو هلك وذلك المال عنده فلم يضعه في حقه ؟).

وارجع عمر هنا مبلغاً لم يكن العرب يتخيلون وجوده أصلاً ..

ثمانمائة ألف ..!

لم يصدق عمر المبلغ .. لعلك تقصد ثمانين ألفاً ؟!

كم الثمانمائة ألف ؟ عدها لي . لم يكن يصدق .

لم يكن يريد أن يصدق ، فقد كانت هذه الثروة الهائلة مسؤوليّة جديدة تلقى على عاتقيه ..

كانت تلك الأموال امتحاناً هائلاً تمر به الأمة في عهد عمر ، وكان عمر يعي تماماً أن هلاك الأمم السابقة وضعفها قد جاء من سقوطها في هذا الامتحان ..

(عن جبير بن الحويرث بن نقيد أن عمر بن الخطاب استشار المسلمين في تدوين الديوان فقال له علي بن أبي طالب : تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من مال ولا تمسك منه شيئاً ، وقال عثمان بن عفان : أرى مالا كثيراً يسع الناس وإن لم يحصوا حتى تعرف من أخذ ممن لم يأخذ ، خشيت أن ينتشر الأمر . فقال له الوليد بن هشام بن المغيرة : يا أمير المؤمنين قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديواناً وجندوا جنوداً فدون ديواناً وجند جنوداً ، فأخذ بقوله).

إذا هي الدواوين .. اقتباساً من ملوك الشام ..

إنه أسلوب تابع لحضارة أخرى .. لكن عمر لم يخرج منه لحظة واحدة .. لم يجد في نفسه حرجاً من أن يأخذ به ..

ليس كما حدث مع شيء مستورد آخر .. شيء تابع لحضارة أخرى ..

* * *

لكن «الدواوين» .. شيء آخر ..

الدواوين ستكون وسيلة منزوعة القيم ، تنصهر مع القيم الإسلامية ، تذوب فيها لتظهر بقالب جديد ..

وهكذا فإن الدواوين ، وهي سجلات إحصائية ، كانت تستخدم من قبل الروم لجمع الضرائب من الناس ..

وصارت في عهد عمر ، لتوزيعها على الناس !.. بالضبط لإعادة تدويرها ! .

* * *

تحول الديوان على يد عمر إلى وسيلة لإدارة التحول الحضارية كان انعكاساً لعبقريته وإبداعه ، مهما حاولنا أن نرصد حجم هذا الإبداع تأثيره على تحولات المجتمع ، فإننا سنجد أنفسنا عاجزين عن الإحاطة بحقيقة أن يكون هذا العمل المؤسسي الشامخ ، بكل هذه الإدارة التنظيمية الدقيقة هو نتاج لعمل رجل واحد بالمعنى المعاصر ، ومهما قارنا مع شخصيات قيادية فذة ساهمت في نهضة مجتمعاتها وبناء حضاراتها ، فإن الأمر سيكون لصالح عمر وعلى نحو ساحق .. كل القيادات المعاصرة الفذة كانت تراكم منجزاتها على حجر أساس بناه وساهم في إرسائه غيرهم .

الإدارة العمرية كانت مختلفة .

حجر الأساس كان من وضع محمد عليه الصلاة والسلام دون أدنى شك ..

لكن ما وضعه عمر عليه ، كان أكثر من مجرد حجر .

كان بناءه كاملاً ..

بناءً عمرياً ، مادته الأولية هي ذاتها نظام التشغيل القرآني الذي يعمل عليه «عقل عمر» .

* * *

مصارف الفيء كما قسمها عمر ، وكما وزعها ، تعبر تماماً عن هذه العبقورية العمرية في إدارة أعمال الدولة الجديدة ..

قسم الفيء كما يلي :

خمس الفيء أوردته موارد الغنيمة :

(واعلموا أنما علمتم من شيء فأن لله خمسته وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل)

أي أن الموارد الضخمة من الفيء صارت تصب لهذه الموارد ، وهي في معظمها واضحة في توجهها لمساعدة الفقراء وذوي الدخل المحدود بتعبيرنا المعاصر .

ماذا فعل عمر بسهم الرسول عليه الصلاة والسلام ؟

لم يورثه ، متفقاً في ذلك مع أبي بكر ، التزما بحديثه عليه الصلاة والسلام : «نحن الأنبياء لا نورث .. ما تركناه صدقة» .

لكنه جعل سهم الرسول كما كان عليه الصلاة والسلام ينفقه غالباً في «الكراع والسلاح» أي في الميزانية العسكرية للدولة .

هل أبطل سهم «ذوي القربى»؟

سيبدو ذلك للوهلة الأولى .

لكن الحقيقة أنه أعاد ترتيب العطاء كاملاً (مع الفيء وليس فقط الغنيمة) بحيث جعل من ذوي قربي رسول الله صلى الله عليه وسلم في المرتبة الأولى من العطاء ، بل إنه اعتمد على «القربة» لتكون معياراً أولاً في التوزيع .

إنه قسم العطاء على أساس القرب من الرسول عليه الصلاة والسلام في أهل بيته ..

ومن ثم على أساس السبق والمشاركة في الإسلام ..

قد تم تدريج الطبقات التي يخرج لها الخليفة عطاءها (بحسب تدقيق روايات الطبري والبلاذري واليعقوبي والمقرئزي) .

١- العباس وعائشة رضوان الله عليهما لكل منهما ١٢ ألف درهم .

٢- أمهات المؤمنين لكل واحدة منهن ١٠ آلاف درهم .

٣- من شهد بدرًا من المهاجرين والأنصار (سنويا) ٥ آلاف درهم ، وقد ألحق بهم أربعة ليسوا ممن شهد بدرًا ، وهم : الحسن والحسين وأبو ذر وسلمان الفارسي رضوان الله عليهم جميعاً .

٤- أربعة آلاف لمن بين بدر والحديبية ولمهاجرة الحبشة ولأسامة بن زيد .

٥- ثلاثة آلاف لمن بعد الحديبية ، ولمن هاجر قبل الفتح وأضيف إليهم عبدالله بن عمر .

٦- ألفان لأهل القادسية وأصحاب اليرموك .

٧- ألف درهم لمن بعد القادسية واليرموك .

كما فرض لكل مولود ١٠٠ درهم وإذا ترعرع أصبح ٢٠٠ درهم ، ولم يترك حتى اللقيط إذا فرض له مائة درهم ووصى به خيراً !

كما أنه وضع معياراً خاصاً سماه الكفاية ، ارتبط ذلك بعدد من يعول من الذراري ، وبالموضع الذي الشخص من الغلاء والرخص ، أي وضع مخصصات لغلاء معيشة !..

ما الذي كان يحدث من خلال هذا التوزيع الجديد للثروة ؟..

أولاً - التوزيع الأكبر الذي كان لعائشة وأمهات المؤمنين كان يؤدي فوراً إلى توزيعها إلى فقراء المسلمين ، فقد كن - أمهات المؤمنين - أكثر الناس تصدقاً ، وكان العطاء الممنوح لهن يختفي في ليلة واحدة أحياناً حيث يوزع على الفقراء ، أي أن هذا المبلغ كان عملياً يمنح " للجمعيات الخيرية " بعبارة معاصرة ..

ثانياً - إن المعيار الأساسي في التوزيع كان الإنجاز الشخصي في الانضمام للإسلام والدفاع عنه ونشره ، وليس أي وضع عشائري أو قبلي كما كان سائداً من قبل .. أو كما كان عبر عمر نفسه عن «الإنجاز الشخصي» بقوله : «مناخ راحلته» .

(فمن أسرعت به الهجرة أسرع به العطاء ومن أبطأ عن الهجرة أبطأ به العطاء فلا يلومن أحكم إلا مناخ راحلته).

هذا الوضع الاقتصادي الجديد ، كأن يستأصل جذور القبيلة التي نسف بنيانها الإسلام فعلاً ، لكن بقيت جذورها قائمة ..

ثالثاً - إن فكرة الإنجاز الفردي في بناء المجتمع (أي دور الأنا في المحن) كانت ستبقى مهيمنة على ذهن الجميع ، وستبقى دافعاً قوياً لمن فاتته السبق للمشاركة في فتوحات أخرى من أنواع مختلفة .. فالمبدأ هو أن يكون وضعك قد تحدد بمنجزاتك الشخصية في بناء المجتمع والدولة ، وبعد كان لا بد أن تنشأ تقسيمات جديدة لأن أصحاب التقسيمات القديمة كانوا سيتوفون إلى رحمته تعالى .. لكن المبدأ سيبقى واحداً : إنجازك (الصالح المجتمع) هو ما يحدد وضعك .. لا نسبك ولا قرابتك لأحد ولا أي شيء غير ما تنجزه بنفسك للمجتمع .

مناخ الراحلة كان سيكون دوماً هناك ..

في كل مرحلة يقطعها البناء الجديد .

* * *

وكان عدم تقسيم الأراضي المفتوحة على الفاتحين - كما مر سابقاً - خطوة إدارية مهمة .. على المدى البعيد والقريب ..

على المدى القريب ، أنه حمى المسلمين من أن يتحولوا إلى «أصحاب إقطاعيات» ..

وحمى الفلاحين من سكان الأراضي من أن يتحولوا إلى عبيد في أرضهم ، بل أخذها من أصحاب الإقطاعيات ووزعها على الفلاحين ، فكان ذلك واحداً من أهم منجزات العدالة الاجتماعية عبر التاريخ ، والتي لم يسبق أبداً أن حصلت مع أية دولة منتصرة أخرى ..

وعلى المدى البعيد : لقد حمى أجيال المسلمين الجديدة من أن تسترخي على هذا الترف القتال ، عندما تجد كل تلك الأراضي قد صارت «إرثاً شخصياً» لها .

* * *

وكان من منجزات عمر الإدارية تكوينه لمنصب الحسبة الذي يقوم في جوهره على حماية محارم الله تعالى أن تنتهك ، وصيانة أعراض الناس ، والمحافظة على المرافق العامة والأمن العام للمجتمع ، إضافة إلى الإشراف العام على الأسواق وأصحاب الحرف .. وقد كان عمر هو أول من عين مراقباً عاماً في عهده (استعمل عبدالله بن عتبة على السوق) فيما عده العلماء أصل

ولاية الحسبة .. وتأسيسه لهذا المنصب يمثل إدراكه ضرورة تحويل مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى مؤسسة قانونية واضحة المعالم والضوابط والمعايير ..

* * *

أوجزت السيدة عائشة في عبارة عبقرية واحدة إدارة عمر ..
(ومن رأى عمر بن الخطاب عرف أنه خلق غناء للإسلام ، كان والله أحوذنا نسج وحده ، قد أعد للأمور أقرانها).
أعد للأمور أقرانها : أي أعد لكل أمر ما يلزمه .. ما يكفيه .. على نحو مسبق .. قبل أن يأتي ..
إنه التعريف الأشمل للإدارة .. إسلامياً .. المستقاة من الشهادة الأهم من شهادة هارفر د !

* * *

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال : ما سمعت عمر بن الخطاب يقول لشيء قط إنني لأظن كذا وكذا إلا كان كما يظن
لم يكن لدى عمر كرة بلورية سحرية .
ولم يكن يسترق السمع .
لكنها الإدارة الدقيقة التي تعد لكل الأمور أقرانها .. تجعل كل شيء يبدو متوقعاً حتى لو كان طارئاً .. تجعل ما يظنه عمر بعد نظر دقيق .
كان تأسيس عمر للتاريخ الهجري حدثاً تمتزج فيه العبقرية الإدارية بكل المعاني العميقة للنهوض والحضارة .
للهولة الأولى سيبدو الأمر ، كما لو كان تنظيمياً بحتاً ..
لكن قليلاً من التأمل سيجعلنا ندرك أي عمق حضاري يمكن أن يحتوي ما قد يبدو مجرد قرار إداري ..
(عن الشعبي قال كتب أبو موسى إلى أنه يأتينا كتب ما نعرفه تأريخها فأرخ فاستشار أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم أرخ لمبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال بعضهم أرخ لموت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر أرخ لمهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم فرق بين الحق والباطل فأرخ).
القرار في أساسه كان لتنظيم شؤون المراسلات والمكاتبات الرسمية .
لكن عمر حوله ، جعل منه علامة فارقة لولادة عصر جديد .
حضارة جديدة .

حضارة جديدة فارقة بين الحق والباطل .

لم يختار ولادة الرسول الكريم ، فتاريخنا لم يبدأ بولادته عليه الصلاة والسلام ، ولو أنه اختار تاريخ ميلاده أو وفاته عليه الصلاة والسلام لكان ذلك خطوة مشابهة للغلو الذي وقع فيه النصارى ..
لم يختار حتى تأريخ البعثة ..

فبالنسبة لعمر ، لحظة الشروع الحقيقية ، التي مهد لها ما سبق ، كانت لحظة نزول العقيدة إلى مجال التطبيق ، انتقالها من القلوب والرؤوس إلى ميدان العمل .. المحك الأصلي .. وهو ما لم يحدث إلا في الهجرة .. مالم يحدث إلا عند نشوء الدولة التي احتضنت الفكرة ومنحتها التمكين "لتكون" .

اختار الهجرة إذن ..

صار التاريخ الهجري من يومها رمزاً لكل من هاجر إلى الحق ، مفارقاً الباطل .. ماشياً على درب الموحش الملغم المليء بالفخاخ بينهما ..

كم يبدو الأمر للوهلة الأولى مجرد تنظيم إداري كي يتم في ترتيب استلام الكتب وتوثيقها .. لكن بين يدي عبقرى مثل عمر ، للأمر أبعاد أخرى .

* * *

أكثر ما يلم المسلمين بعضهم إلى بعض ، ويشدهم بعض إلى بعض ، ويجعلهم يشعرون أنهم "واحد" .. وأن لا فوارق بينهم ..

هو الصلاة ..

صلاة الجماعة تحديداً ..

وأكثر ما تكون هذه الصلاة " جامعة للناس " ، محققة لغرض التجمع وتوحيد الناس ، في رمضان ..

في صلاة التراويح تحديداً ..

الصلاة التي أدارها "عمر" .

* * *

... كانت صلاة التراويح قد صليت جماعة في عهده عليه الصلاة والسلام ..

(عن عبدالرحمن بن عبد القارئ أنه قال خرجت مع عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ليلة في رمضان ، إلى المسجد ، فإذا الناس أوزاع متفرقون يصلي الرجل لنفسه ، ويصلي الرجل فيصلي بصلاته الرهط فقال عمر إني أرى لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد لكان أمثل . ثم عزم فجمعهم على أبي بن كعب ، ثم خرجت معه ليلة أخرى ، والناس يصلون بصلاة قارئهم ، قال عمر نعم البدعة هذه ، والتي ينامون عنها أفضل من التي يقومون . يريد آخر الليل ، وكان الناس يقومون أوله).

* * *

صحيح تماماً !

نعمت البدعة !

جمعنا كم يومها عمر ..

كل تلك الدموع ، كل تلك الشهقات ، كل تلك الدعوات ..

كل أولئك الذين دخلوا المسجد في رمضان من أجل صلاة التراويح فحسب ، كعادة ، كتقليد اجتماعي ..
ثم وجدوا أنفسهم بالتدرج في الصلاة .. وجدوا قلوبهم تتعلق بالمساجد ، تتعلق بثريات المساجد ..
كل أولئك يدينون بالتزامهم لبدعة عمر ، لعبقريته الإدارية .. لعقله الذي «يعمل» بنظام تشغيل قرآني ..

* * *

لو لم يكن في سجله الإداري ، غير أنه يجمعنا كل سنة ، في تلك التراويح ..
فنشعر بأخوتنا ، ونشعر بقوتنا ، ونشعر بكل ما يمكن أن يكون لو أن هذا العدد جاء جاء طيلة السنة ..
لو لم يكن في سجله الإداري غير هذا ..
لكفى ..
ولما وفيناه حقه من الشكر ..

أن تكون الأول ..
عندما تختار عبارة ، أو صورة ، أو رمزاً ما ليمثلك ، فإن ذلك على الأغلب يمثل جزءاً مهماً منك ..
من دوافعك ، ومن شخصيتك ، من أهدافك وطموحاتك ..
يحدث ذلك كثيراً ، أن نختار رمزاً يعبر عنا في وسائل الاتصال الاجتماعية المختلفة .. أو جملة أو قولاً مأثوراً نحبه لسبب أو لآخر ..
قد يتغير ذلك بحسب الصرعات السائدة أو الحالة المزاجية ..
لكن عندما تختار رمزاً ثابتاً ، فهذا يعني دوماً أنك مرتبط دوماً بهذا الرمز .. وبهذا الشعار ..
وأنه جزء من مكونات شخصيتك .

* * *

«كفى بالموت واعظاً يا عمر» ..
هذه هي العبارة التي اختارها عمر لتتقش على خاتمه ..
وهي حتماً تفسر الكثير ..
تفسر ماذا يعني الموت بالنسبة له ، وماذا تعني موعظة الموت .. وماذا تعني الحياة ، كل الحياة .. بالنسبة له ..
لو أننا وجدنا هذا النقش على خاتم أحد مشاهير الزهاد العابدين ، لقلنا إن موعظة الموت كانت في المزيد من التعبد ، المزيد من الانقطاع للشعائر .. المزيد من الخشوع فيها ..

لكن هذا النقش كان على خاتم رجل احتار التاريخ من أي باب يدخله .. وكل أبواب المجد مشرعه له ..

وبعضها أبواب لم تفتح إلا للقلّة عبر التاريخ ..

فأية موعظة هذه للموت ، جعلت حياته تفتح كل تلك الأبواب ..

ما الذي قاله له الموت ، ولم يقله لنا ، وجعل حياته مثمرة كبستان في الجنة ، بينما أفضل حياة لنا لا تكون أكثر من شجرة فيها بعض الثمار ..

لعل الموت قال لنا وله الشيء ذاته ..

لكن عمر فهمه على نحو مختلف ..

فهمه أن الحياة تمضي بسرعة ، مثل غفوة في يوم قانظ ، وأن عليه أن يغتنم كل لحظة منها للعمل ..

فهمه أن موعظة الموت ليست في زيادة العبادة ما لم تؤد هذه الزيادة إلى زيادة طاقته على العمل وتصويبه ..

إنه هو القائل : لموت ألف عابد قائم الليل صائم النهار أهون من موت عاقل عقل الله أمره فعلم ما أحل الله له وما حرم عليه ، فانتفع بعلمه ، وانتفع الناس به ، وإن كان لا يزيد على الفرائض التي فرض الله عز وجل عليه كثير زيادة .

لم يكن لديه مشكلة في علاقة الدنيا بالآخرة .. لم يكن لديه هذا الفصل المزمّن الذي نعاني منه نحن ..

إنه الموت الذي موعظته أن الحياة سريعة كالبرق ، كلمح البصر ، فليكن عملك منيراً كالبرق ، فليكن عملك مما يخطف البصر .. يكون مختلفاً مبدعاً بحيث يخطف البصر ..

إنه الموت الذي موعظته أن لا مفر من العمل .. لا مفر من الانهماك في العمل .. لا يمكن لأي شيء أية عبادة ، أية شعيرة تؤدي أن تكون بديلاً عن ذلك ..

إنه الموت الذي موعظته أن تعمل حتى اللحظة الأخيرة في حياتك .

* * *

(وروى ابن جرير عن عمارة بن خزيمة بن ثابت قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول لأبي : ما يمنعك أن تغرس أرضك ؟

فقال له أبي : أنا شيخ كبير أموت غداً ..

فقال له عمر : أعزم عليك ; لتغرسنها !..

فلقد رأيت عمر يغرسها بيده مع أبي).

عمر يقول لشيخ كبير في السن ..

لم لا تزرع أرضك ..

فيرد الرجل إن الأمر لا يستحق ، فهو سيموت قريباً قبل أن يرى ثمار غرسه ، فليقسم عليه

أمير المؤمنين أن يغرس ..

بل ويغرس معه!..

إنها تلك الفسيلة ، التي قال عنها الرسول صلى الله عليه وسلم : (إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها).

لقد غرس عليه الصلاة والسلام تلك الفسيلة في قلب عمر ..

فسيلة العمل والأمل ..

كفى بالموت واعظاً يا عمر ، كانت تعني أن أصنع الحياة .. اصنعها على نحو يجعل حياتك مختلفة عن حياة الآخرين .. على نحو يجعل موتك لا ينهي حياتك ، بل تبقى مستمرة رغم موتك بأثر يبقى .

كفى بالموت واعظاً يا عمر .. كانت تعني أن أجعل حياتك صدقة جارية .. لا تنقطع حتى لو انقطعت أنفاسك ..

كفى بالموت واعظاً يا عمر .. كانت تعني حياتك بأسرها ليست سوى حلبة سباق مع نفسك أولاً ، لكي تجعل الحياة لحظة مغادرتك إياها أفضل من لحظة دخولك لها ..

تلك المعادلة الحاسمة ، الحياة قبلك ، والحياة بعدك ، هي ما يحدد موقعك بعد الحياة .. هل كانت محصلة وجودك أفضل ؟ هل كانت أسوأ ؟

أم أنك كنت صفرأ على الشمال ؟

مررت دون أن تترك أي أثر .

* * *

في يده كان ذلك الخاتم .. الذي نقشته عليه تلك المقولة : كفى بالموت واعظاً يا عمر ..

ويده ، كل أعضائه ، كانت تعمل بحسب تلك الموعظة ..

لتجعل الحياة أفضل .

* * *

كان من نتائج ذلك الفهم العمري أن رجل صار مثل «الداينمو» للعمل .. عمل لا يكل ولا يمل .. طيلة اليوم والليل ..

بل كان من نتائجه ، وقد فهم ما فهم ، ووعى أن عمر في عمله قد جمع أكبر كمية ممكنة من «الأوائل» ..

لا يمكن لقائد مسلم أو غير مسلم ، أن يكون قد حاز لقب «أول من فعل كذا..» كما حصل عمر .. وبفارق كبير جداً عن كل من سواه ..

قائمة الأوائل تلك ..

تلك القائمة تكاد تغني عن أية مناقب أخرى ..

لكنك عندما تقرؤها ستفهم لم قال صلى الله عليه وسلم ما قال في حقه ..

لَمْ قال : لو كان نبي بعدي لكان عمر ..

ولَمْ قال : لم أرَ عبقرياً يفري فريه ..

ولَمْ قال : لو رآك الشيطان لسلك سبيلاً غير سبيلك ..

..وستفهم أيضاً ، كيف تحقق دعاؤه عليه الصلاة والسلام ..

اللهم أعز الإسلام بأحب العمرين .

وستقول مع نفسك : ليس هناك من عبقرى مثله ..

ثم تتذكر .. أن هذا ما قاله أصدق الخلق .

* * *

*أول من وضع تأريخاً للمسلمين واتخذ التاريخ من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

*هو أول من عس في الليل بنفسه ، ولم يفعلها حاكم قبل عمر ، ولا تعلم أحدًا عملها بانتظام بعد عمر .

لم يشهد التاريخ ، قبل أو بعد ، حاكماً لدولة مترامية الأطراف ، وهو يقوم بمهمة الحارس الليلي ..

*أول من عقد مؤتمرات سنوية للقادة والولاة ومحاسبتهم ، وذلك في موسم الحج .

*أول من أتخذ الدرة (عصا صغيرة) وأدب بها .. حتى قال البعض : كانت درة عمر أهيب في الصدور من سوطكم هذا وقال الشعبي : كانت درة عمر أهيب من سيف الحجاج .

ودرة عمر كانت رمزا مهيباً ترتبط بحسم عمر ، وحزمه ، وعدم تساهله مباشرة مع أي تقصير دون أن يدخل في بيروقراطية السنين والجيم .. الدرة كانت عصاً صغيرة لا تؤذي ..

*أول من مصرّ الأمصار .

*أول من مهّد الطرق ومنها كلمته الشهيرة (لو عثرت بغلة للعراق لسألني الله تعالى عنها لم لم تمهّد الطريق يا عمر؟).

وكان تعبيد الطرق وتسهيل المواصلات يعبر عن فهم عمر بن الخطاب لأهميتها في التطور المدني الحضاري ، فربط المدن بعضها ببعض ، وربطها بالعاصمة ، يسهل كل الأعمال الاقتصادية والعسكرية ويسهل تنقل الناس ونشر العلم والقرآن .

*أول من اتخذ المراقب العام فيما يعد نواة للحسبة .

*أول من جمع الناس على صلاة التراويح .

*أول من جعل الخلافة شورى بين عدد محدد .

*أول من وسع المسجد النبوي والمكي وفرشه بالحصى .

*أول من أسقط الجزية عن الفقراء والعجزة من أهل الكتاب ، وأعطى فقراء أهل الكتاب من بيت مال المسلمين .

*أول من جعل الجزية بحسب المستوى المعاشي .

*أول من أقام المعسكرات الحربية الدائمة .

*أول من حرس الحدود بالجند .

*أول من حدد مدة غياب الجنود عن زوجاتهم بستة أشهر حرصاً على تماسك العلاقات الأسرية .

*أول من أقام قوات احتياطية نظامية .

*أول من أمر قواده بموافاته بتقارير مفصلة مكتوبة بأحوال الرعية من الجيش .

- *أول من دون ديواناً للجند لتسجيل أسمائهم ورواتبهم .
- *أول من أنشأ مخازن لأغذية للجيش .
- *أول من دون الدواوين (أي وضع الدوائر والسجلات الرسمية) .
- *أول من اتخذ دار التموين .
- *أول من أقام محطات استراحة في الطريق بين المدن الرئيسية .
- *أول من أذن برواية القصص ، فيما يعرف بالقصاص أو الحكواتي .
- *أول من أوقف في الإسلام (الأوقاف).
- *أول من جعل حصة تموينية لكل فرد شهرياً ، ساوى فيها بين الرجل والمرأة والحر والعبد ، وحددها بعد أن قام بتجربة جمع فيها ثلاثين رجلاً وحدد ما يكفي لشبعهم في اليوم والليلة .
- *أول من أحصى أموال عماله وقاداته وولاته ، وطالبهم بكشف حساب أموالهم (من أين لك هذا ؟)
- كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عمرو بن العاص ، وكان عامله على مصر :
(من عبدالله عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص ، سلام عليك ، أما بعد ، فإنه بلغني أنك فشت لك فاشية من خيل وإبل وغنم وبقر وعبيد . وعهدي بك قبل ذلك أن لا مال لك ، فاكتب إلي من أين أصل هذا المال ولا تكتمه .
- فكتب إليه : من عمرو بن العاص إلى عبدالله بن عمر بن الخطاب أمير المؤمنين .
- سلام عليك . فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد . فإنه أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه ما فشا لي ، وأنه يعرفني قبل ذلك ولا مال لي .
- وإني أعلم أمير المؤمنين أنني ببلد السعر به رخيص ، وأني من الحرفة والزراعة ما يعالجه أهله ، وليس في رزق أمير المؤمنين سعة . وبالله لو رأيت خيانتك حلالاً ما خنتك ، فأقصر أيها الرجل ، فإن لنا أحساباً هي خير من العمل لك ، إن رجعنا إليها عشنا بها . ولعمري إن عندك من لا يذم معيشتة ولا تدم له .
- وذكرت أن عنك من المهاجرين الأولين من هو خير مني ، فأني كان ذلك ولم نفتح قفلك ، ولم نشاركك في عملك .
- فكتب إليه : أما بعد ، فإني والله ما أنا من أساطيرك التي تسطر ، ونسبك الكلام في غير مرجع ! وما يغني عنك أن تزكي نفسك ، وقد بعثت إليك محمد بن سلمة فشاطرته مالك . فإنكم أيها الرهط الأمراء جلستم على عيون المال ثم لم يعوزكم عذر ، تجمعون لأبنائكم ، وتمهدون لأنفسكم . أما تجمعون العار ، وتورثون النار ، والسلام .)
- *أول رئيس دولة عظمى يقوم بتنظيف الشوارع بنفسه .
- *أول من حفر الأنهار والقنوات .
- *أول من ضرب الدراهم ، وقدر وزنها .
- *أول من أخذ زكاة الخيل .
- *أول من جعل نفقة اللقيط من بيت المال .
- *أول من مسح الأراضي ، وحدد مساحتها .

*أول من وضع قانوناً للضيافة ، حيث اشترط الضيافة ليوم وليلة على أهل السواد والجزية .
وكان ذلك نواة لدور الضيافة المجانية .

*أول من أقرض الفائض من بيت المال للتجارة .

وكان ذلك بمثابة تشجيع للشباب على العمل والسعي في الرزق بمنحهم رأس مال يمكنهم من البدء بمشاريع مناسبة لطموحاتهم

*أول من وضع المحميات الطبيعية .

*أول من قونن علاج الحيوانات المصابة بأمراض (كان يعالج إبل الصدقة بيديه).

*أول من عين امرأة في منصب المحاسب أو الوزير .

وهي الشفاء بنت عبد الله .

*أول من أمر بالتعليم الإلزامي .

*أول من جعل التعليم مجانياً .

*أول من أصدر قانوناً يحارب الدجل والشعوذة حيث أمر بقتل كل ساحر أو ساحرة .

*أول من وفر المساعدة مجاناً لذوي الاحتياجات الخاصة .

*أول من سمح باستخلاف الموالي على المدن وفيها أشراف القوم (وليس أي مدينة : بل مكة!) .

*أول من جعل الدولة تقدم الضمان لأصحاب الحرف والأعمال .

(عن عبدالرزاق عن معمر عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي مليح بن أسامة أن عمر بن الخطاب ضمن رجلاً كان يختن الصبيان ، فقطع من ذكر الصبي فضمنه) .

هذا «الضمان» كان تشجيعاً للمسلمين على الخوض في مجالات غير مطروقة بالنسبة لهم .. بعض هذه الحرف لم تكن «محترمة» عند العرب ، لأن العرب كانوا أصلاً «يعتبرونها» مهانة ولا تزال كلمة «مهنة» حتى الآن تحمل الجذر البعيد لهذا الاحتقار..

ليس هذا فقط ، بل جعل «الضمان» وسيلة لجذب التجار والباعة إلى منظومة اقتصادية بأخلاقيات وقوانين موحدة ..

*أول من منع المسؤولين في الدولة من ركوب السيارات الفارهة التي تميزهم عن الناس .

(عن عاصم بن أبي النجود أن عمر بن الخطاب كان إذا بعث عماله شرط عليهم ألا تركبوا برذونا) .

والبرذون حيوان هجين أبوه حمار وأمه فرس .

*أول من منع الفاتحين من شراء العقارات من أهل الذمة في الأمصار المفتوحة .

*أول من أمر بصرف عطاء الجند كاملاً لكل جندي من العدو يلتحق ضمن المدة التي حددت قبل القتال .

*أول من جعل إحياء الأرض واستصلاحها سبباً لدوام ملكيتها .

كل هذا .. وربما المزيد ..

قال محمود عباس العقاد ، المفكر الكبير ، الذي كتب العبقريات ، ومن ضمنها «عبقرية عمر» :

إن كتابة سيرة عمر أشبه ما تكون بعملية بحث في من أول من فعل هذا ومن أول من أنجز ذلك ..

لسنا بحاجة لدليل على عبقرية عمر ..

لكن هذا القول دليل على عبقرية العقاد !

هل يمكن أن نستغرب حقاً كل هذه القائمة من عمر ، الذي كان الموت خير واعظ له ؟

أليست الحياة هي عكس الموت ؟

ألم يعلمه القرآن أن «صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين لا شريك له» ..

ألم يقض حياته وهو يثبت هذه الآية ويطبقها عملياً على أرض الواقع ..

لذا كان من الطبيعي جداً أن تتحقق تنمة الآية ..

«.. وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين» ..

أول المسلمين ..

كم واحدة من هذه حاز عمر ؟

لقد سبق الجميع ، بمسافة شاسعة -!- حتى إن علياً قال له : لقد أذلت الخلفاء من بعدك !.

وهل نستغرب ذلك ممن قال عنه الرسول عليه الصلاة والسلام : «لم أرَ عبقرياً يفري فريه» .

هل نستغرب ذلك من أول من جهر بالإسلام ؟

أن تكون حياته سلسلة متصلة متواصلة من منجزات كان فيها هو الرائد والأول على مستوى الإنسانية كلها ؟

* * *

وكم واحدة حزت أنت ؟..

لا يزال في العالم متسع لكي تكون أولاً في هذا المجال وذاك ..

لا يزال الموت خير واعظ من أجل حياة أفضل ..

حياة تترك فرقاً ، بين لحظتي دخولك وخروجك منها ..

* * *

لا داعي لنقش تلك الكلمات على خاتمك ..

انقشها على قلبك وعقلك ..

وأثبت ذلك في الحياة الفاصلة بين نقطتين .

الحضارة صنع في الاسلام

كلنا نستخدم المفردة ، نرى عمارة شاهقة ناطحة سحب فنقول: حضارة. أو نرى سلوك معين ، طفلاً يعبر الشارع ليلقي بورقة في المكان المخصص لها . فنقول: حضارة أو تحضر .

كل هذا مفهوم ولكن ما هي الحضارة ؟

الحضارة في تعريف المؤرخ و الكاتب الأمريكي ول ديورانت هي :

مجموعة من الشروط التي تتوفر في مجتمع ما و تؤدي إلى تمكين هذا المجتمع من الانتاج و التمايز على كافة الأصعدة .

و شروط الحضارة كما ذكر :

❖ وجود ما يوحد هذا المجتمع من إيمان بقيم مشتركة ، لا يشترط أن تكون قيمًا دينية، و قد تكون وضعية .

❖ وجود نظام حكم يوفر حدًا معينًا من الأمن و العدل .

❖ وجود تعليمي متميز يساهم بنقل القيم و التعاليم إلى أجيال جديدة و تطويرها .

و كل ما تابعناه من سيرة عمر ، كان تمثيلًا مفصلاً لهذه الشروط.

أتاحت الفتوحات التي ربما انضمت لها بعض القبائل رغبةً و طمعاً في الغنائم فحسب .

الفرصة لعمر لتعميق إسلام هؤلاء، فوجود القراء المختصين بقراءة القرآن و الشعائر و القرب من الموت ، كل هذا أتاح لهؤلاء أن يقتربوا أكثر من الإسلام .

صار من الواضح الآن لأفراد المجتمع أنهم يعيشون فيظل مجتمعاً يوفر لهم حياة كريمة و عدالة اجتماعية لا تزال تعد قريبة من المثالية بمقاييسنا المعاصرة ، و كان النظام التعليمي متعدد الأذرع فمن قراءة القرآن و حفظه و من الفقه و التفقه فيه إلى نظم التعليم الإلزامي و المجاني . فالحضارات تقوم بسنن وضعها الله . ربما ما أنجزه عمر مع الحضارة الإسلامية كان يحتاج إلى عشرة أشخاص أو زعماء في حضارات أخرى ، لكن عمر الذي ولد عبر القرآن ، اختصر قصة الحضارة.

يختلف المشترك الإيماني الذي وحد الأمة الإسلامية و الذي نزل به القرآن عن كل المشتركات التي وحدت الأمم الأخرى في انطلاقها الحضاري بأنه كان مشتركاً يرتكز على الإيمان بالله وتوحيده على نحو مطلق جداً ، دون وجود أي تشبيه أو ترميز أو تمثّل مادي . و كان هذا جزءاً من قوة هذا المشترك فهو يربط الجماهير بالمطلق غير قابل للتجسيم، فيلهب خيالها و روحها و يجعلها عملاقة بحجم المطلق .

ولكن في المقابل فإن هذا الإيمان المجرد ، كان صعباً على البعض خاصة حديثي العهد في الإسلام كانوا عريقي عهد بالوثنية ، و الإنسان يميل بطبعه إلى إسقاط معتقداته القديمة على ما يعتنقه من دين جديد ، كما حدث في الديانة المسيحية فكثيراً من الرموز الدينية المسيحية لا تمت لدعوة عيسى بصلّة ، بل كانت تنتمي لأوثان تم تحويل شخوصها إلى قساوسة و رموز دينية مسيحية .

مع الإسلام باعتباره الدين الخاتم ، كان يجب أن يواجه بحسم و إلا سارت الأمور على نحو يمزج بين الإسلام و بعض مظاهر الشرك و الوثنية ، و كان الأمر يحتاج حسماً عمرياً . وهناك ثلاثة مواقف عمرية حاسمة منعت أن تتسرب للإسلام تلك الظواهر التجسيمية، فلتأملها: (عن نافع قال : بلغ عمر بن الخطاب أن أناساً يأتون الشجرة التي ببيع تحتها قال: فأمر بها فُقطعت)

و أما مع تلك الشجرة فانه يأمر بقطعها بحسم ، الشجرة عندما تتحول لتكون متكاً لتسلل الشرك و تشويه عقيدة التوحيد ، فإن هذه الشجرة لن تكون إلا كالشجرة الأخرى في القرآن ، الشجرة الملعونة ، ولكن عمر قطعها بحسم ليس إلا لعمر .

(عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن الخطاب-رضي الله عنه- قال للركن أما والله إنني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت النبي-صلى الله عليه و سلم- استلمك ما استلمتك فاستلمتها ثم قال: فما لنا وللرمل إنما كنا رأينا المشركين وقد أهلكهم الله ثم قال : شيء صنعه النبي-صلى الله عليه و سلم- فلا يجب أن نتركه)

قوية جدًا هي كلمة عمر مع الحجر الأسود ، ولولا أنه قالها بهذا الوضوح لتسللت الكثير من المفاهيم التجسيمية بحجة الحجر الأسود و تقبيل الرسول عليه الصلاة و السلام .
بالمناسبة: لم يكن يحدث الحجر الأسود فهو لا يضر ولا ينفع ولا يتكلم أيضًا ، كان يُسمع من حوله و يسمعنا .

(وقد ثبت عنه أنه كان في سفر فرأى قومًا ينتابون بقعة يصلون فيها فقال : ما هذا ؟
فقالوا: هذا مكان صلى فيه رسول الله صلى الله عليه و سلم ، فقال : ومكان صلى أم فيه رسول الله صلى الله عليه و سلم ؟! إنما هلك بنو إسرائيل بهذا من أدركته الصلاة فليصل وإلا فليمض)

التوحيد الحقيقي المتعالي عن أي تجسم المنزه عن أي مظهر شركي هو قوة لآية حضارة تركز عليه لتقوم ، منجزات عمر السياسية، الادارية، التعليمية، أسهمت في تكملة كل الشروط الأساسية لقيام الحضارة ، ليس سرًا أن هذا التوحيد المجرد النقي الذي يعطي الإنسان طاقة و قوة إضافية تحرره من كل ما يعكره و أن هذا التوحيد قد تعرض إلى تشويه كبير ليس على صعيد الممارسات التطبيقية و الشعائرية فحسب ، بل على صعيد الفهم النظري وإن الوثنية التي استأصلها الإسلام من جذورها لم تلبث أن وجدت ما يسمح لها بالتسلل على أطراف أصابعها، فكان من الطبيعي أن تحدث بعض الثغرات مع اتساع الدولة ، وزيادة عدد المسلمين ووجود بقايا عقائد وثنية عند الكثير من حديثي العهد بالإسلام الذين لم يجدوا عمرًا في زمانهم ، ساهم هذا التسلل في إضعاف التوحيد ، خاصة أنه بدأ يجد أمامه من يتهاون معه ، وأدى هذا إلى ضعف بنية المجتمع تدريجيًا ، وكانت هذه البيئة هي البيئة المناسبة الخصبة لنمو معاني التجسيم و الشرك التي تراكمت بالتأكيد في أذهان الكثير من المسلمين ، لم يكن من الممكن مس النصوص القرآنية بالتأكيد و تحريفها لتنسجم مع هذه المعاني المضادة لكل ما جاء في الإسلام ، ولكنهم كانوا يحاولون البحث عن حوادث صغيرة و تغيير مسارها و معانيها ليبرروا ويشرعوا خروج مسارهم عن جوهر الإسلام ، ولأن هؤلاء كانوا حافلين بتناقضاتهم فقد وجدوا موقفًا واحدًا لعمر بن الخطاب تحديدًا ، رغم أن هذا الموقف العمري ككل المواقف الاخرى كان يغلق الأبواب أمام هذه السلوكيات ، لكنهم تمكنوا من قراءة نصف الموقف ، حدث الموقف أثناء أزمة الرمادة

(عن أنس رضي الله عنه : أن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا صلى الله عليه و سلم فتسقيننا ، و إنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا قال: فيسقون)

عمر كان يتوسل بالعباس تعني أنه كان يقول له : ادع لنا ربك ! أي كما يقول أي منا لمن نتق به: أدع لنا، و التوسل في المصطلح الشائع اليوم أمر مختلف تمامًا ، يتراوح بين البدعة التي لم تأت بدليل و بين التوسل الذي يتجاوز خطورة البدعة إلى الشرك المحض ، في الحقيقة إن تمام الموقف كان يصب في غير صالح هؤلاء ، بعبارة أخرى: لو أن التوسل بجاه الأموات أو بأي شيء يتعلق بهم كان مشروعًا لفعلها عمر ، ولكن لم يفعلوا و قبر نبي الله عليه الصلاة و السلام على مرمى خطوات منه.

ولكن لم اختار عمر العباس تحديدًا !!؟

ليس فقط للقرابة المجردة ، بل لأنه كان بحسب ما وصفه عليه الصلاة و السلام (أجود قریش كفًا و أوصلها) ، و كان هذا الجود و الكرم العباسي قد جعل الرسول الكريم عليه الصلاة و السلام يطلب منه زكاته مقدمًا عن سنة أو سنتين ، و قبل كل هذا كانت سقاية الحجيج للعباس بمكة منذ ما قبل الإسلام ، بل لقد قيل إنه كان قد أسلم سرًا و لم يهاجر كي يبقى على السقاية في مكة ، كل هذا يجعل من اختيار عمر للعباس ليدعو الله ، و ليؤمن الناس خلفه أمرًا أعمق و أبعد من مجرد قرابته للرسول صلى الله عليه و سلم ، على أهميتها في محبة الرسول له ، لقد كان العباس بمثابة الأب للرسول ، ثم يأتي من يقرأ نصف موقف ببعد واحد و يقول : توسل !.

في ذات الوقت قام عمر بالعمل على تكريس سلوكيات معينة ، رأى عمر أن السلوك الشعبي للأمة الناشئة يجب أن يكون سنة الرسول عليه الصلاة والسلام ، حرص عليها عمر بن الخطاب تارة بالتذكير و تارة بالوعظ و أحياناً بالدرة ، سلوكيات عامة بين النظافة الشخصية و نظافة الشوارع و آداب الطريق و التعامل مع الأولاد و الاعتزاز بالملبس و الهوية و دخول الحمام و آداب الاغتسال و الرفق بالحيوان و سلوكيات الاختلاط بين الجنسين ، كلها أمور قد تبدو بسيطة للوهلة الأولى ولكنها عميقة جداً ، إنه أمير المؤمنين رأى رجلاً يحك إبطه فقال له أن يذهب ليغتسل ، ليس أمراً شخصياً إنها الحضارة تتمثل في قيم و تصرفات صغيرة ، الحضارة قد تكون في هذه التصرفات الصغيرة قبل أن تكون في ناطحات السحاب الكبيرة ، إنه السلوك الذي يقود الحضارة .

كان عمر مدرّكاً أن الحضارة التي كان يصنعها تحتاج دوماً لدماء جديدة لشباب يضحون فيها روحهم و من نظرتهم الجديدة للأشياء ، يبتغي حدة عقولهم ، الأمر المعضل يأخذه عمر للفتيان يستشيرهم كان صانع حضارة و الحضارة لا تصنع بجيل أو جيلين بل بأجيال متعاقبة ، لذلك كان يريد أن يقف ليرى الجيل القادم وهو يواجه معضلات الأمور ؟ ليس كل شاب جيد قد يكون عابداً ، نظيف الهيئة . هل له حرفة : لا . سقط من عين عمر سقط من معايير الحضارة فعين عمر ترى بمعيار الحضارة ، الحضارة لا يمكن أن تتوافق مع وجود أشخاص عاطلين عن العمل ، فقد كان يرى أن القوة في العمل ، لماذا توهمن أن هذه مباديء حديثة من صنع الحضارة الغربية ؟

حضارة الإسلام تلك التي شيدها عمر كانت حضارة عز ، عز ليس بالمعايير القادمة من حضارات أخرى ، بل بعز يبتدئ من القواعد بمعايير إسلامية ، عز الإسلام يبدأ من شخص يؤمن بأنه خلق ليكون الخليفة ليحكم بما أمره الله . كما قال ابن الخطاب وهو على مشارف بيت المقدس ورجلاه غائرتان في الوحل يُخرج بغيره من المخاضة ، عندما قال له أبو عبيدة أنه يخشى أن يراه البطارقة بهذا الوضع "إنا قوم أعزنا الله بالإسلام فلن نبتغي العزة بغيره" جملة بسيطة تلخص كل شيء.

تلك الحضارة القوة و العزة و المنعة و الخشوع و التعبد تتلخص في عمر (عن الحارث بن عمر النهدي قال : مر رجل على عمر بن الخطاب و قد تخشع و تذلل فقال: ألسنت مسلماً قال: بلى . قال: فارفع رأسك و أمدد عنقك فإن الإسلام عزيز و منيع) ذلك كان يعيش في عصر عمر ! لذا انتهره عمر أنت مسلم ؟ إذا ارفع رأسك ، لو رأنا لقال لنا دون أن يسألنا أسلموا حقاً كي ترفعوا رؤوسكم .

عمر و وعاء الحضارة

بالنسبة للمفكرين و المحللين يمكن تحليل أسباب أزمة ما عند نشوبها و اقتراح حلول لهذه الأزمة المفكر الفذ منهم من ينتبه لبوادر و علامات مبكرة لهذه الأزمة ، و بعد عقود يصدق كلامه . العبقري هو من يرى عن بُعد، أساليب الوقاية من المرض قبل حدوث أول حالة مرضية، و يقدم اللقاح قبل أن يبدأ المرض أصلاً، قبل أن يكون هنالك أية احتمالية للمرض .

لأن عمر هو العبقري الذي ليس هناك من يفري فريه فقد كان من هؤلاء و أكثر ، كما أنه تعامل مع بوارد الترف عندما تدفقت الأموال إلى المجتمع المدني ، و رأى ببصيرته التي تركبت عبر القرآن أن ذلك قد يكون اختبار تمر به كل الحضارات و قلما تنجو واحدة منه .
مشكلة الهوية عمومًا و اللغة خصوصًا لا تحدث في فترات العز الأمة تكون في حالة إشباع و الشعور بالقوة و المنعة يكون جزءًا من التفاعل المتبادل و المشترك بين الفرد و المجتمع .
لكن الخروج عن الهوية أمر مختلف ، بعبارة أخرى : عندما تكون منتصرًا فإن الغالب هو أن يقوم المغلوب بتقليد هويتك، و نسخك في كل ما يظهر على سطحك، و اللغة من باب أولى .
في عهد عمر كان ما يحدث و ما هو طبيعي أن يحدث بحسب قوانين السنن الاجتماعية أن تقوم الشعوب التي فتحت بلدانها بتبني بعضًا من الهوية الإسلامية المنتصرة ، و في هذه الحالة يتضمن دخول هذه الشعوب تدريجيًا في الإسلام ، لكن القاعدة العامة المنتصر لا يقلد المغلوب .
فهم عمر بعقريته الحادة أن اللغة واحدة من أهم مقومات الحفاظ على القيم الحضارية و تماسكها ربما لم يكن هناك بوارد واضحة ، لأن المرحلة لا تستلزم وجود انحراف في الهوية لكن عمر كان بالمرصاد لما سيحدث لاحقًا ، قال عمر : (تعلموا العربية فإنها تثبت العقل و تزيد في المروءة)

بالنسبة لعمر فإن عقله كان يعمل بنظام تشغيل مستمد من القرآن ، لو كان في عربيته خلل لأدى هذا إلى إحداث خلل فيتشكيل عقله و المروءة هنا : أن لا تفعل في السر ماتستحي أن تفعله في العلن ، و علاقته بالعربية هو ان يكون قلبك و ظاهرك على لسان قوم واحد ، أن تفقد لغة قومك و تبدلها بلغة غيرهم ترطن بها فهذا انفصام بدرجة أعمق .

(و يروى أن كاتبًا لأبي موسى كتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ((من أبي موسى)) فكتب إليه عمر : ((إذا أتاك كتابي هذا فاضرب كاتبك سوطًا و اعزله عن عملك)) هاهو عمر يحول الأمر إلى قانون إلى عقوبة و تعزيز تنال من يجرؤ على ثلم الوعاء الحضاري.

ثم جاء الانهيار، و بالتدريج قل ما في الوعاء من قيم، و كان من الطبيعي أن يأتي وعاء آخر و يعامل بكل ما فيه من القيم كما لو كان قد هبط من السماء، قيم المنتصر و ملابسه و بالتأكيد من باب أولى لغته في أدنى درك يمكن تخيله من دركات هزيمتنا ، فشَلْنَا في الإنجاز يرتبط بتركنا للغتنا التي هي وعاء قيمنا ، لو كنا حريصين عليها لكان فشلنا عابراً ، لكن فشلنا مقيماً دائماً و كان حتمياً لأننا خرجنا من ذواتنا ، هزيمتنا كانت داخلية قبل أن تكون خارجية دربنا باسترداد ذواتنا يمر حتماً باسترداد عمر و فهمه لوعاء الحضارة ، وإن ضيعنا الوعاء فلا أمل في إمساك القيم .

مدرسة تجفيف المنابع

كان الإسلام ثورة جذرية على الجاهلية و على بُناها الفكرية العقديّة ، الإسلام يقدم مشروعاً متكاملًا إن الهدم هو من أجل البناء ، و الاستئصال هو من أجل الغرس، و بين الاثنين كانت هناك مسافة لابد أن تأخذ وقتها الطبيعي ، مدرسة تجفيف المنابع إسلامية قرآنية أصيلة، علماً أن كل تدرج و كل تجفيف للمناابع كان قائماً على هذا التوحيد الحاسم بطريقة أو بأخرى ، كل شيء قدمه الإسلام قائماً على لا إله إلا الله ، في المرحلة الوسطى بين تجفيف المستنقع و القضاء على أعراض المرض كان عهد عمر ، و لأن التجفيف و التحولات الاجتماعية تتطلب وقتاً إلى أن تثمر نتائجها فكان من الطبيعي أن لا يحدث ذلك في حياة الرسول صلى الله عليه و سلم و إنما بالتدريج خلال حياة من خلفه من الصحابة .

فلنفرق هنا بين ما قام الإسلام بنسفه فوراً و من الجذر و يشمل الشرك و كل الكبائر، وبين ما تدرج القرآن في تحريمه مثل الخمر ، الحكم النهائي كان تحريماً قاطعاً لكن الحكمة القرآنية

اختارت التدرج في التحريم؛ لأن البدائل يجب أن توفر ، تجفيف المنابع هو القضاء على الأسباب الرئيسية لظاهرة سلبية ما و ترك أعراضها و مظاهرها تموت ببطء . نتحدث عن أمرين في غاية الأهمية ، الرق و القبلية ، في الحالتين و رغم التباين الموجود في كل منهما فإن الإسلام لم يحرمهما قطعاً ، و لكن ضيق الروافد الأساسية التي تصب فيهم و قدم الكثير مما يجفف المستنقع تدريجياً ، بالنسبة للرق هناك نصوص كثيرة قرآنية و نبوية تشجع على تحرير العبيد و تجعل ذلك عملاً يتقرب به لله عز وجل ، و من الناحية العلمية كل مصادر الرق التي كانت سائدة قبل الإسلام عطلت إلا واحدة مرتبطة بالحروب التي يخوضها المسلمون في سبيل دينهم و كان هناك عشرات النصوص التي تحت علي عتق الرقيق و تجعل ذلك من أبواب التكفير عن الذنوب أو المخالفات الشرعية، بل إن جزءاً من ركن من أركان الاسلام الخمسة الزكاة قد خصص لغرض تحرير الرقاب .

لكن لِمَ لَمْ يخطُ الإسلام خطوة حاسمة في اتجاه تحريم الرق ؟
أولاً- أن الرق كان يمثل علاقة من علاقات الإنتاج السائدة في المجتمع و الإسلام لم يبلغ أية علاقة من هذا النوع إلا عبر توفير بديل لها ، فإن كل ما يقال عن منجزات الحضارة الغربية في إلغاء الرق لم يكن بدوافع الحرية و المساواة و الإنسانية، بل بسبب تغيرات حادة في علاقات الإنتاج بعد صعود الرأسمالية و الثورة الصناعية ، و أسهمت تجارة العبيد بدفع عجلة الثورة الصناعية ، و بالنسبة للإسلام كان البديل هو تقديم علاقات جديدة بين الإنسان و الإنسان مبنية على علاقة هذا الإنسان بربه .
ثانياً- من المهم أن ننتبه هنا إلى أن أي نفس مبكر و جذري للعبودية يقوم به الإنسان كان سيشوش على القيم الجوهرية للإسلام.
ما الذي فعله عمر في عهده مما يكون استمراراً في مسيرة تجفيف المنابع في شأن العبودية تحديداً ؟

(عن سعيد بن المسيب ، أن عمر رضي الله عنه أعتق أمهات الأولاد و قال عمر : اعتقهن رسول الله صلى الله عليه و سلم) .

عمر مضى على فهم الرسول الكريم بعقله الذي يعمل بنظام التشغيل القرآني عرف أنه سيأتي وقت ولا بد أن يعد الاستمرار بذلك، أي أن يكون الولد حراً و أمه تباع و تشتري بمثابة القطيعة المنهي عنها، وهكذا فإن عمر قد أمسك نقطة أمهات الأولاد من حيث تركها عليه الصلاة و السلام و أوصلها، ابتداء من منتصف ولايته إلى حيث تعتق كل جارية ولدت بل حتى لم تلد بل حملت و أسقطت و لاحقاً صار يعتقها فور ولادتها، ولعل الجمع بين الشواهد قد يؤدي إلى أن عمر كان أولاً يأمر بعنقها فور وفاة سيدها خطوة على درب انطلق من ردم المستنقع، بفهم و عقل يعمل بالقرآن و لا يقوى ولا يملك الجرأة على تنفيذه إلا القوي الأمين .

(عن عمرو بن شعيب و عطاء أن عمر بن الخطاب قال : في اليهودي و النصراني و العبد : فشهادتهم جائزة)

أول من قبل شهادة العبد ، أي فارق كبير أحدثه هذا ، لم يعد نكرة صار إنسان يخشى منه سيده أو أي شخص آخر يحسب له حساباً ، لم يبق الكثير على العتق .

(عن ابن عمر أن عمر بن الخطاب " أعتق في وصيته كل من صلى ركعتين من رقيق المال و أعتق رقيقاً من رقيق المال كانوا يحفرون للناس القبور و شرط عليهم أنكم تخدمون الخليفة بعدي ثلاث سنين و أنه يصحبكم بما كنت أصحابكم به)

و كان ذلك تنويجاً لقسطه من درب تجفيف المنابع جعلها في وصيته أن يعتق رقيق المال الذين صلوا أو الذين أسلموا ، أي ربط بين الحرية و بين أن تحوز على إنسانيتك كاملة و بين الصلاة ؟!

يجب أن تكون صلاتنا هي مفتاح حريتنا و كرامتنا و إنسانيتنا و أن تكون بطاقة للتحرر من العبودية.

الأمر الثاني الذي احتاج إلى تجفيف منابع و هدم تدريجي كان القبلية .

ذاك النظام الذي ساد في جزيرة العرب و كان العمود الفقري للنظام الاجتماعي في العهد الجاهلي لأنه لم يكن هناك ببساطك نظاماً آخر ، لم يكن ممكناً أن تعيش كفرد في الصحراء القاسية دون أن تكون من ضمن النظام القبلي الذي كان يوفر الحماية للفرد ، كانت القبيلة هي الشعب و الدولة ، وكان ارتباط أفرادها يعتمد على قرابة الدم و الانتماء لجذ مباشر واحد يمكن أن تنتسب له أفخاذ و عشائر وغالباً لا ترتبط بمكان محدد ، و قانون القبيلة و كان القوة و التعايش بين قبيلة و أخرى مر بنزاعات لفترات طويلة و جاءت الأحلاف و المعاهدات لتقنن الدم، العقبة الأخطر التي كان يمثلها النظام أمام الإسلام كونه يعتمد على الولاء و الدم للقبيلة و لكن هذه العصبية كانت تتعارض تماماً مع فكرة الإسلام ، الولاء في الإسلام للفكرة و للعقيدة و للمبدأ ، لكنما لم يقدم البديل الذي يمكن للفرد أن يعيش فيه فإن القبيلة ستبقى موجودة ، علاقة المسلمين المنسحبين من عالم القبيلة بهذا الدين الجديد كانت عبر رسالة رسول الإسلام الذي لم يكن " أباً أحد من رجالكم و لكن رسول الله و خاتم النبيين و كان الله بكل شيء عليماً " (الأحزاب: ٤٠).

لقد انتهت علاقة الدم و قرابة العشيرة في هذا الأمر و صارت رابطة تنظيمية لا أكثر ، لم يترك هؤلاء آباءهم وإخوانهم ولكن صارت الأولوية للإسلام و لقد جفف الإسلام منبع القبيلة الأول . كان لعمر مشروع يمكن تسميته تذويب القبيلة و أول ركن من أركانه كان مع الدية ، وكان من أهم مقومات الانتماء القبلي و روافده هو موضوع الدية و هو من أهم الروابط التي تشد أزر القبيلة و تشعر الفرد بأنه ليس وحده فيما لو تورط بشيء ، ساهم عمر في تذويب هذه الرابطة عبر تغيير جوهره قام به على من يدفع الدية و الدية كانت معروفة تؤخذ قبل عمر في عهد الرسول عليه الصلاة و السلام من عشيرة الرجل الذي يتوجب عليه دفع الدية ، ولكن عمر العبري وجد أن استمرار القبيلة في دفع الدية سيبقي على انتماء لها ، لذا فقد قام عمر بخطوة غاية في الخطورة بجعل الدية ليس في العشيرة بل في أهل الديوان، أي في ديوان الرجل نفسه إن كان قد سجل في سجل المقاتلين فإن دفع الدية سيكون على أهل ديوانه، أي عبقرية هذه ؟ لم تعد النصر من قبل العشيرة بل من قبل إنجازك الشخصي التي تنظم عبر الدين و هذا ما يسمونه المجتمع المدني ، إنه يجعلك تنتمي للحضارة التي تساهم في بنائها ،ومن منطق نفس الروابط العشائرية كان عمر متشدداً مع الفخر و التناهي بالعشائر ليس هذا فقط (عن طلحة بن عبيد الله بن كريب قال كتب عمر إلى أمراء الأجناد إذا تداعت القبائل فاضربوهم بالسيف حتى يصيروا إلى دعوة الإسلام).

أحاربون من أجل الإسلام أم من أجل القبيلة ؟! إذا كانوا لم ينصهروا في الأمة في لحظات المواجهة مع العدو متى إذا ؟! في لحظة المواجهة التي يجب أن يكون فيها الكل أقرب ما يكون إلى ما يحاربون لأجله ، لا مفر من أن تعرف أن تلك القيم الجاهلية الكامنة ليست أقل خطراً من كسرى و قيصر.

لقد أرخ عمر عمر مستفتحاً بالهجرة و كانت تحمل معاني ترك ذلك العصر إلى عصر آخر بقيم و مفاهيم مبنية على القرآن ، و كل من يعتقد أنه يُهرب بعضاً من متاع الجاهلية في الرحلة تلك درة عمر له بالمرصاد لكن ذلك لم يكن دون أفعال إدارية قام بها عمر تسهل انضمام القبائل إلى المجتمع الجديد لقد جعل الأنباط و هم من البدو الرحل يساهمون في تنظيف المدينة ، المساهمة في أي عمل مدني تجعل الشخص يشعر تدريجياً بالانتماء للمدينة دون وعي واضح كخطوة أولى في تركهم للبداءة و انضمامهم للمدينة.

(قال عمر : و إن كرم الرجل دينه و حسبه و خلقه و إن كان فارسياً او نبطياً)

أي تشجيع هذا لترك أساطير النسب جانباً و التركيز على الدين و الخلق . ولا يخرج تمصير الأمصار الذي فعله عمر عن هذا كثيراً و تمصير الأمصار هو بناء المدن الجديدة التي فتحت على يد الجيوش الإسلامية و قد بنيت في عهده ثلاث مدن لعبت دوراً مهماً في التاريخ و هي البصرة و الكوفة في العراق و الفسطاط في مصر و بناء المدن لم يكن عملاً اعتباطياً بل كان جزءاً من خطة من يريد تكريس عملية تذويب القبيلة و كان خبرة عملية

عظيمة أضيفت للمسلمين أن تبني مدينتك لا أن تسكن مدائن من سبقك يجعلك تنتمي أكثر ، عندما تبني مدينه على قواعد الحق و العدل التي انطلقت فيها عملية الفتح فإنك تصبح رسمياً الخليفة في الأرض .

(عن جعفر قال للزهري: من أول من ورث العرب من الموالي؟ قال: عمر بن الخطاب). شبكة العلاقات الاجتماعية تتغير الموالي الذي كانوا عبيدا ينتقلون عبر الميراث سابقاً صاروا اليوم ليسوا أحراراً فحسب و يملكون من الثروة ما يمكن أن يكون مجالا للنزاع عليه ، و عندما يكون هؤلاء دون ذرية أو زوجة فإن ارثهم سيعود إلى مواليتهم ممن أعتقهم أولاً ، إنها شبكة جديدة من العلاقات تولد من مفهوم جديد للعتق و الحرية .

درب تجفيف المنايع يستمر يأخذ من النصوص الثابتة نقطة انطلاق و يعرف أن دربه يجب ألا يصطدم بمعارضة أي نص ثابت آخر كيلا يتحول إلى وسيلة إلى الاهواء و المصالح كان عمر يدرك أن هناك الكثير مما يجب عمله و لكن كان يدرك أيضاً أن ليس كل هذا يمكن أن يكون مناسباً في وقت واحد ، كان يخشى من سنن الأمم السابقة أن تتكرر ، أليس هو من أقنع أبا بكر بضرورة جمع القرآن ؟ ألم يكن ذلك خطوة مهمة في حفظ القرآن ؟

حياة عمر : الدخول فيها ممكن لكن الخروج مستحيل

حياة حافلة كحياة عمر كان لابد أن تنتهي بموت حافل ، بموت مليء بالمعاني ، يستمر في منحنا العبر و الإشارات كما استمرت حياته كذلك ، حياة حافلة ثرية كحياة صانع الحضارة ، نحن في العام الأخير لخلافة عمر في السنة ٢٣ هجرية البناء اشتد و علا و الأهم من ذلك لقد كان على قواعد ثابتة و قوية ، الدولة نموذجية كان الإنسان الجديد لبنة من لبنات المدينة و كان اليد التي تبني و سيسكن في البناء إن الإنسان الخليفة يتم تصنيعه عبر مجتمع الاستخلاف في عاصمة دولة الخلافة .

هذه المدينة عام ٢٣ هجرية كانت أهم منجزات عمر كانت ثمرة لعملية غرس طويل بذرتاها الأولى عليه الصلاة والسلام و سقاها بيديه الكريمتين و رأى ساقها تشتد و حماها أبو بكر و لكن أغصانها لم تمتد و تتفرع إلا في عهد عمر و الثمرة النهائية لم تظهر إلا على يديه في موسم خلافته كان ذلك المجتمع المدني- نسبة الى المدينة المنورة- هو أهم ما يمكن لأي مسلم أن يحققه

ربما لذلك كانت دعوته رضي الله عنه أن يرزق بالشهادة في سبيل الله في مدينة رسول الله عاش حياته الحافلة في سبيل أن يحقق لهذه المدينة ما وصلت له أن تكون مدينة في سبيل الله كما كانت حياته في سبيل الله ، و الحياة في سبيله أصعب حتى من الموت في سبيله لو كنا نعي ذلك ، كانت حرب الحضارة هي الأهم و كانت معارك الفتوحات العسكرية جزءاً منها و كانت المدينة هي ثمرة النصر في ذلك كله.

قرن الشيطان الذي كان قد استقر بالعراق و استعبده و استعبد أهله كان قد كسر في القادسية عندما تحطم ملك كسرى ، ولكن الشيطان نفسه لم يهزم كان يلتقط أنفاسه لينتقم ، تسلل هذه المرة كالأفعى بحذر و خفة بلا صوت ، هذه المرة كان القناع لغلام مجوسي اسمه فيروز يكنى بأبي لؤلؤة كان أصلاً من نهاوند- نهاوند التي كان فتحها إيذاناً بفتح فارس كلها دون قتال- (عن أبي رافع قال: كان أبو لؤلؤة عبداً للمغيرة بن شعبه و كان يصنع الأرحاء كان المغيرة يستغله كل يوم بأربعة دراهم فلقي أبو لؤلؤة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا أمير

المؤمنين أن المغيرة قد أثقل على غلتي فكلمه يخفف عني فقال له عمر : " اتق الله و أحسنالي مولاك " فغضب العبد و قال: وسع الناس كلهم عدلك غيري فأضمر على قتله في الخارج يبدو الأمر مجرد رغبة و انتقام شخصي عابر ، ولكن دوما هناك وراء الأكمة ما وراءها فيروز كان ممثلاً لكسرى، كسرى كان فاراً هائماً على وجهه، ممثلاً رسمياً ، لا بالتأكيد لكن ربما التقى بعض خدم كسرى، أن الهرمزان كان يعيش في المدينة أيضاً ،ملك خوزستانجيء به أسيراً ولا بد أن انكسار الإمبراطورية الفارسية قد أشعره بالذل حتى لو رأى عدل المسلمين وإنصافهم ، هل تعتمد أبو لؤلؤة افتعال الشكوى بإيحاء من محرضه المفترض الهرمزان؟ كي يبدو الأمر شخصياً بين عامل اعتقد بوقوع الظلم عليه و حاكم لم ينصفه من ظالميه باعتقاد العامل ، هذا هو الأمر الأقرب للمنطق.

كان الهرمزان رجلاً عمل في الحكم و السياسة و خدم دولة الأكاسرة لذا فإن تورطه في الأمر يكسبه أبعاداً مختلفة ،كان الهرمزان قد شخص مبكراً منذ اللحظة الأولى التي رأى فيها عمر وجود ثغرة كبيرة في حمايته الشخصية و قد عبر عن ذلك فيما فهم أنه ثناء لكنه كان تحديداً لما يمكنه أن يستغل للنيل من عمر ، فهم الهرمزان أن عدل عمر يجنبه التفكير في ذلك من قبل المسلمين ، لكن الأمر لم يكن ذاته من قبل أعدائه ، ما الذي يمنعهم من قتله ؟ و مع زيادة الفتوحات زاد عدد العلوج في المدينة من أمثلة فيروز و سواه وقد حذر منه عمر ولكن لم يحول حذره لقانون يمنع دخولهم لعدم وجود نص شرعي يسنده في ذلك و لأن الحذر وحده لا يكفي ،وجد الهرمزان في فيروز وسيلة جيدة لكي ينفذ جريمة الحقد الأكبر بكثير من الحقد الشخصي

ماذا سيستفيد الهرمزان في هذه الجريمة ؟

لعل الهرمزان الذي عاصر أربعة أكاسرة في فترات اضطرابات متعاقبة قد تصور أن شخصاً بقوة عمر بن الخطاب سيتترك فراغاً في السلطة لو قتل و أن صراعات حادة ستنشب بعده مما يؤدي إلى تفكيك الدولة أو ضعف سيطرتها على الأمصار المفتوحة ، وربما كان يطمع بعرش كسرى من جديد و ذلك التاج الذي صار بين يدي سراقه ، ولعله وعد فيروز الذي كان يدرك أنه ربما لن يفلت من الموت أن يتزوج من ابنة لؤلؤة لتجلس معه على عرش كسرى ، نظرياً الأمر ممكناً ولكن ليس مع دولة الإسلام و حضارته ، قد يكون كل ما سبق فرضيات مبنية على شهادة واحدة ،لكن فلنتذكر أن التاريخ يتحرك على نحو أكثر تعقيداً تحركه مصالح و عقائد و مشاعر شديدة التداخل ، وفق هذا المنظور لم يكن اغتيال عمر من قبل أبي لؤلؤة سوى قمة صغيرة بارزة لجبل المؤامرة الغاطس في عمق التاريخ .

شهادة مفصلة جداً لما حدث في ذلك الفجر الدامي الحزين جاءت من الصحابي عمرو بن ميمون:

أن عمر كان يحاسب عامليه على الخراج يخاف أن يكونا قد أثقلا الأرض و فلاحيهما بما لا يحتملون يؤكدان له أنه لا فيعود و يسألهم حاملاً هم العدل في كل تفصيل ثم يقول هذه الجملة الهائلة :لأن سلمني الله لأدعن أرامل العراق لا يحتجن إلى رجل بعدي أبداً . ما الذي كان سيفعله ؟ لا نعرف . لكننا نقرأ في كلامه أنه بصدد تأسيس عمل مؤسسي آخر من أعماله التي حاز فيها لقب أول من يفعل ذلك.

وتسلل الشيطان يومها كما الأفعى عند صلاة الفجر ، كانت خطته تستلزم أن بالصف الأول خلف عمر ، أما شاهدنا عمرو بن ميمون فقد كان في الصف الثاني لم يكن قد تأخر بالمجيء كان يعتمد أن يكون بالصف الثاني من شدة هيبه عمر !و عمر يتقدم الصفوف ليسويها (حتى إذ لم ير فيهن خللاً تقدم فكبر ، و ربما قرأ سورة يوسف أو النحل في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس) لكي يترك المجال للناس لكي يلحقوا بالصلاة في الركعة الثانية ! شاهداً آخر أقسم أن عمر قرأ سورة النحل يومها ،لم يكن عمر يدري أنها الصلاة الأخيرة ، لم يتمدد أن يقرأ سورة النحل لكن أحياناً ما لا نعتمده يعبر عنا أكثر من كل ما نعتمده، سورة النحل هي سورة تدور و تجول في أنعم الله على البشر من أبسط الأشياء إلى الأكبرها من نعمة الحياة والوجود إلى نعمة طول

العمر مروراً بكل ما يمكن تخيله مما أنعم الله علينا فيه، في هذه المرحلة من عمر الحضارة الإسلامية كان السؤال يبدو كما يطرح على مفترق طرق لا مفر منه ، لقد جاءت كل الدنيا بكل أنعمها للمسلمين في عهد عمر وكان عمر حريصاً تماماً على أن تكون هذه النعم وسيلة لا غاية وأن تكون ممراً للعدل وللمزيد من الفتوحات في المجالات كافة . و كان هناك أشياء أخرى في ذلك الفجر الحزين في آيات سورة النحل (و قيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة و لدار الآخرة خير و لنعم دار المتقين . جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاءون كذلك يجزي الله المتقين الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون). النحل (٣٠-٣٢) .

لم يدر أحد بينما كان عمر يقرأ تلك الآيات أن الملائكة كانت تستعد لاستقبال واحد ممن كان عمله قد أحدث أثراً كبيراً في العالم ، لم يكن ذلك محصلة لعمله وحده لكن الأرض في السنوات العشر التي استخلف عمر فيها قد تغيرت كثيراً نحو ما يجب أن تكونه و كان ذلك يعود له ولما تعلمه و فهمه من رسالته عليه الصلاة و السلام. لعلها تذكرت يوماً ما ، يوم قالت لله عز وجل " أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء " و قال عز وجل: "إني أعلم ما لا تعلمون". كان عمر واحداً من ذلك النوع من البشر الذين علمهم الله و لم تتخيل الملائكة إمكانية وجودهم . (إن الله مع الذين اتقوا و الذين هم محسنون) (النحل: ١٢٨).

كما لو أن القرآن يقول لعمر "أنت على وشك المغادرة .. الله معك" كبر شرع في الركوع ولعله قال سراً سبحان ربي العظيم ، وجاءته الأفعى مستغلة أنه أصبح هدفاً سهلاً لحظة الركوع وأنهم لن ينتبهوا لما سيفعله "الكلب" ، طعنات بخنجر مسموم واحدة في الكتف و الأخرى بالخاصرة (... فطار العليج بسكين ذات طرفين لا يمر على أحد إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً مات منهم سبعة...) لو أن الأمر شخصياً ضد الخليفة كان يفترض أنه ظلمه فما شأن هؤلاء الذين طار فيهم بسكين حقه ، كان ذلك جزءاً من خطة حقه لقد افترض أنه سيقول أشخاصاً من مساعدي عمر أو من مرشحيه المحتملين أن ذلك سيزيد من الفوضى المحتملة (... فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسا فلما ظن العليج أنه مأخوذ نحر نفسه ...) انتحر كي يبقى متسترأ على الخطأ ، كي لا يقول لنا إن الجريمة ستبقى مستمرة و إن الإسلام سيبقى مستهدفاً وإن عمر بالذات سيكون هدفاً دوماً لأنه عز الإسلام و كل من لا يريد للإسلام أن يعود حقاً سيبقى يهاجمه و ينال منه ، (... فمن يلي عمر فقد رأى الذي أرى وأما نواحي المسجد فإنهم لا يدرون غير أنهم قد فقدوا صوت عمر و هم يقولون سبحان الله سبحان الله و تناول عمر يد عبد الرحمن بن عوف فقدمه فصرى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة صلى بهم بأقصر سورتين فلما انصرفوا قال يا ابن عباس انظر من قتلني فجال ساعة ثم جاء فقال : غلام المغيرة . قال عمر: الصنع ؟ قال: نعم. قال: قاتله الله لقد أمرت به معروفاً الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل يدعي الإسلام و قد كنت أنت و أبوك تحبان أن تكثر العلو في المدينة و كان العباس أكثرهم رقيقاً فقال: أي إن شئت قتلنا. قال: كذبت بعد ما تكلموا بلسانكم و صلوا قبلتكم و ججو حجكم ...) أمر به معروفاً إذ كان قدكلم عنه المغيرة .

(... عن ابن عباس قال: لما طعن عمر احتملته أنا و نفر من الأنصار حتى أدخلناه منزله فلم يزل في غشية واحدة حتى أسفر . فقال رجل: إنكم لن تفزعوه بشيء إلا بالصلاة قال: فقلنا : الصلاة يا أمير المؤمنين ! قال: ففتح عينيه ثم قال: أصلى الناس ؟ قال : نعم . قال: أما إنه لا حظ في الإسلام لأحد ترك الصلاة فصرى و جرحه يثعب دماً ...) صلى و جرحه ينزف لم يكن جرحه وحده ينزف كلنا كنا ننزف و لكننا لم نكن ندرك ذلك لأننا لم نكن قد ولدنا بعد ، ثم جاء الطبيب (....) فاتاه الطبيب فقال: أي الشراب أحب إليك فقال: النبيذ. قال: فدعي بالنبيذ فشرب منه فخرج من إحدى طعناته فقال: إنما هذا الصديد صديد الدم. قال: فدعي بلبن فشرب . فقال: أوص يا أمير المؤمنين بما كنت موصياً به فوالله ما أراك تمشي).

النبيذ هو ما نسميه اليوم العصير و سمي نبيذاً لأنه مما ينبذ من الثمار

(...قال: يا عبد الله بن عباس اخرج فناد في الناس : أعن ملا منكم كان هذا؟ قالوا: معاذ الله ولا علمنا ولا اطلعنا ...)

(...وجاء الناس يثنون عليه و جاء رجل شاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك من صاحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم- و قدِم في الإسلام ما قد علمت ثم وليت فعدلت ثم شهادة .قال: وددت أن ذلك كفاف لا علي ولا لي فلما أدبر إذا إزاره يمس الأرض .قال: ردوا علي الغلام .قال: ابن أخي ارفع ثوبك فإنه أبقي لثوبك و أتقى لربك). فلننتبه هنا إلى أن عمر أعطى درساً مزدوجاً للفتى و لمن حوله الأول في الالتزام في السنة والثاني في أن يتنبه الجميع إلى أن الثناء على شخص ما قد يجعل هذا الشخص يغض النظر عن بعض أخطاء مقدم الثناء ، ربما مقدم الثناء نفسه سيتوهم ذلك ولكن ليس مع عمر ، حتى أثناء احتضاره .

(...انطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقل: يقرأ عليك عمر السلام ولا تقل أمير المؤمنين فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه فسلم و استأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي فقال: يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام و يستأذن أن يدفن مع صاحبيه فقالت: كنت أريده لنفسى ولأوثرن به اليوم على نفسى فلما أقبل قيل: هذا عبد الله بن عمر قد جاء قال: ارفعوني فأسنده رجل إليه فقال: مالديك؟ قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين أذنت قال: الحمد لله ما كان من شيء أهم إلي من ذلك فإذا أنا قضيت فاحملوني ثم سلم فقل: يستأذن عمر بن الخطاب فإذا أذنت لي فأدخلوني وإن ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين..)

تأملوا اللفظ صاحبيه لا بد أنه افتقدهما في ذلك الدرب الطويل الذي ساره على نهجهما ، لا شيء يعبر عن تكامل حياة الشيخين مع حياته عليه الصلاة و السلام مثل طريقة دفنهم جميعاً في مكان واحد .

كان أهل المدينة يودعونه أدركوا أنه مفارقهم جاء الشباب و جاءت النسوة تنقودهم حفصة للوداع لكن حرارة البكاء لن تكون هنا بل لاحقاً عندما سيفتقد عمر عندما سنقول: لو أنه كان حياً.

(... قالوا أوص يا أمير المؤمنين استخلف قال ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر أو الرهط الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راضٍ فسمى علياً و عثمان و الزبير و طلحة و سعداً و عبد الرحمن و قال: يشهدكم عبد الله بن عمر و ليس له من الأمر شيء فإن أصابت المرة سعداً فهو ذاك ولا فليستعن به أيكم ما أمر فإني لم أعزله عن عجز و خيانه و قال: أوصى الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم و يحفظ لهم حرمتهم وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تبوءوا الدار و الإيمان من قبلهم أن يقبل محسنهم وأن يعمى عن مسيئهم و أوصيه بأهل الأمصار خيراً فأنهم ردة الإسلام و جباه المال و غيظ العدو و أن لا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم و أوصيه بالأعراب خيراً فإنهم أصل العرب و مادة الإسلام أن يؤخذ من حواشي أموالهم و ترد على فقرائهم و أوصيه بذمة الله و ذمة رسوله- صلى الله عليه و سلم- أن يوفى لهم بعهدهم و أن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا إلا طاقتهم).

كان عمر بوصيته تلك يضع لبنة أولى لمجلس شورى لهذا وصى لستة يختارون من بينهم ، أمر مهم جداً يتوضح هنا بحسم و ببساطة: لا للتوريث ! ليس لابن عمر شيء حدد ذلك ولم يسكت عنه ، وضع له منصباً إشرافياً يحرمه من المشاركة للأسف لم يتم الالتزام بهذا لاحقاً وحده عمر بعقله الذي يشتغل بالنظام القرآني ميز من بعيد العلة التي ستحدث و قرر أن لا يكون هو جزءاً منها وترك لنا أثره هذا لنصح الأخطاء التي ستتراكم .

في وصيته أيضاً شيئاً عن أهل الأمصار يسميهم غيظ العدو عندما يكون هؤلاء في مجتمع قائم على العدل و على حكم الله يكون العدو قد هُزم حقاً و عندما يكونون غير ذلك تكون الهزيمة من الداخل حتى لو كان النصر العسكري قد تحقق .

استرداد عمر

لا نتحدث عن استرداد عمر بن الخطاب الشخص فهذا أمر لا معنى له ، نتحدث عن استرداد عمر المعاني و القيم عمر الذي كان عقله يعمل بنظام تشغيل قرآني ، نسترده من أن يتحول لمجرد حكاية ، مجرد قصة، مجرد تاريخ مضى وانتهى يطيب لنا أن نتذكره بين الحين و الآخر ، نسترده من أن يكون وسيلة لاستدراار الذم على العدل الذي كان ، لعل عمر لو سمعنا نقول هذا لرفع درته علينا وهو يقول : وما عمر ؟! حسبكم كتاب الله و سنة رسوله . بالضبط هذا هو ما نريده هما يصنعاننا و يضعاننا بواجهة أنفسنا كما يجب أن تكون ، وهذا ما فعله الكتاب و السنة بعمر فكان إنساناً صُنع في القرآن ، أن نفهم القرآن و السنة بحيث يكونان وسيلة للبناء و الصناعة ، فكان عمر وحده من فهمهما على هذا النحو من دون كل الصحابة ؟ حتماً لا لكن عمر بالإضافة الى تفوقه في الفهم امتلك فرصة التطبيق و أن الشريعة يمكنها بالتأكيد إصلاح العالم و إعادة بنائه ، كان لعمر فرصة تثبت لنا تلك المكانة التي منحها إيانا عز وجل مكانة " الخليفة في الأرض " ، مع عمر الذي كان كافراً مشركاً بل و عدواً للمسلمين الأمر مختلف عمر امتلك ذلك الفهم وفرصة التطبيق بينما صحابة آخرون لم يمتلكوا الفرصة نفسها ، هذا هو عمر الذي نتحدث عن استرداده عمر الإنسان الذي جمع بين الفهم و التطبيق و أعاد تشكيل العالم .

قال حذيفة :

كان الإسلام في زمان عمر كالرجل المقبل لا يزداد إلا قرباً فلما قتل عمر كان كالرجل المدبر لا يزداد إلا بعداً .

هذا الرجل المدبر صار علينا أن نوقفه و نغير وجهته أن نعكسها ليكون مقبلاً كما كان مع عمر . لكن علينا الاعتراف بهذه الحقيقة فقه عمر بعيداً جداً عن كثير من الأدوات الفقهية المستخدمة اليوم في عصرنا الذي أنشأ فيه كسرى أظافره نحتاج إلى عمر الذي كسر رأس كسرى من قبل .

عن عمر قال : إن الإسلام في بناء و إن له انهداماً و إن مما يهدمه زلة عالم وجدال منافق بالقرآن و أئمة مضلين .

الإسلام في حالة بناء و لكن هذا البناء يمكن أن يتوقف بل أن يعكس في حالات ثلاث بحسب عمر ، زلة عالم غير مقصودة ، و قد تتراكم فوقها الزلات ، و قد تكون زلة في موضع مفصلي ، و قد تكون مقصودة .

جدال منافق بالقرآن يستخدم فيه بعض القرآن ليمرر فيه مشروع هدمه الذي قد يحمل عناوين براقة لمشاريع بناء .

أو قد يكون الانهدام نتيجةً لأئمة مضلين لنظام حكم مستبد ، ونحن نعيش اليوم منذ قرون طويلة عصر انهدام طويل تخلله بعض البناء و لكن الأساس فيه الهدم حتى يكاد العدم يصل للقواعد ووسائل الهدم غالباً داخلية .

ليس من المهم هنا أن نقص ما حدث بعد ذلك في عام ٢٣ هجرية و ما تلاها المهم هو ما سيحدث بك أنت في داخلك ما سيحدث في هذه السنة بالذات و ما ستفعله أنت بعد ما عرفت سيرة عمر ، لا يمكنك أن تدخل في سيرة عمر و تخرج منها كما دخلت ، سيرته أقامت الحجة علينا لم يكن نبياً ينزل عليه الوحي لقد كان كافراً مشركاً يشرب الخمر في الجاهلية ، ثم انقلبت حياته فساهم في تغيير هذا العالم كما لو كان بانقلاب كوني، عمر مات ، نعم مات طعناً، ولكن لم تمت بعد ، أم انك مت حتى لو كنت لا تزال على قيد الحياة ، هذا هو الفرق .



امتطى العقاد لهذا الكتاب صهوة فكره، بغية الإحاطة بعظمة بطله، فبطله ذو لونٍ جديد، وعبقريته ذات طابع فريد، والكتاب ليس سرداً لسيرة عمر بن الخطاب، ولا عرضاً لتاريخ عصره، وإنما هو وصف له، ودراسة لأطواره، ودلالة على خصائص عظمته، واستفادة من هذه الخصائص لعلم النفس، وعلم الأخلاق، وحقائق الحياة، لذلك ركز العقاد على ما يفيد هذه الدراسة، سواء لديه أكان من حادث صغير أم عظيم. كما أظهر حرجه عندما حاول أن يجاري من يسمون بالكتاب المنصفين، الذين يقرنون المدائح بالمعائب، ويمزجون النقائص بالمناقب، ولا يأتون بحسنة إلا نقبوا عن سيئة تمحوها، أو تقلل منها، وكأن سر حرج العقاد، أنه لم يجد عيباً ولا ما يستحق اللوم في حياة عمر وأطواره، مما جعله يتوقع أن يتهم بالمغالاة والتحيز والإعجاب، إذ كيف يحاسب - هو أو غيره - عمر بن الخطاب، وقد كان عمر يحاسب نفسه بأعنف مما كان يمكن أن يحاسبه غيره



@rawafed_k



@rawafed_k



@rawafed_k

www.rawafedknowledge.org